التصوف
علم إصلاح القلوب

الحبيب على الجفري
يصف التصوف

اعداد
تيسير كمال عزب

دار الروضة ـ للنشر والتوزيع

٢ درب الأتراك خلف جامع الأزهر
٥٩١٣٤٢٤ ـ ٥٠٦٦٨٨٤ فاكس : ٥٩٢٧٣٦٤

الطبعة الأولى

١٤٢٥ هـ ـ ٢٠٠٤ م

رقم الإيداع ١٠٣٥٩/ ٢٠٠٤
الترقيم الدولى I.S.B.N.
977-3481-61-9

دار الروضة للنشر والتوزيع

المقدمة

إن الحمــد لله نحمده نستعينه ونستغفره ونستهديه ونعوذ بالله من شــرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهديه الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمد عبده ورسوله، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ (آل عمران:١٠٢) .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ (النساء/١) .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾(الأحزاب /٧٠، ٧١) .

أما بعد :

فــإن ظاهــرة ضعف الإيمان وإفساد القلوب مما عم وانتشر في المسلمين، وعدد من الناس يشتكي من قسوة قلبه وتترد عباراتهم :

" أحــس بقســوة فــي قلبي " " لا أجد لذة للعبادات " " أشعر أن إيماني في الحضيض "، " لا أتأثر بقراءة القرآن "، " أقع في المعصية بسهولة "، وكثيرون آثار المرض عليهم بادية، وهذا المرض أساس كل مصيبة وسبب كل نقص وبلية .

وموضـــوع القلوب موضوع حساس ومهم، وقد سمي القلب قلباً لســرعة تقلــبه قال ﷺ : (**إنما القلب من تقلبه، إنما مثل القلب كمثل ريشـــة معلقة في أصل شجرة يقلبها الريح ظهراً لبطن**) رواه أحمد ٤٠٨/٤ وهوفــي صحيح الجامع ٢٣٦٤ . وفي رواية (**مثل القلب كمثل ريشة بأرض فلاة الـــريح ظهراً لبطن**) . أخرجه ابن أبي عاصم في كتاب السنة رقم ٢٢٧ وإسناده صحيح : ظلال الجنة في تخريج السنة للألباني ١٠٢/١ .

وهـــو شـــديد التقلب كما وصفه النبي ﷺ بقوله : (**لقلب ابن آدم أســرع تقلـــباً من القدر إذا استجمعت غلياناً**) المــرجع السابق رقم ٢٢٦ وإسناده صـــحيح: ظـــلال الجـــنة ١٠٢/١ . وفي رواية (**أشد تقلباً من القدر إذا اجتمعت غلياناً**) رواه أحمد ٤/٦ وهوفي صحيح الجامع رقم ٥١٤٧ .

والله ﷻ هو مقلب القلوب ومصرفها كما جاء عن عبد الله بن عمرو بـــن العـــاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : (**إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء**) ثم قال رسول الله ﷺ: (**اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك**) رواه مسلم رقم ٢٦٥٤.

وحيث (**أن الله يحول بين المرء وقلبه**) وأنه لن ينجويوم القيامة (**إلا من أتى الله بقلب سليم**) وأن الويل (**للقاسية قلوبهم من ذكر الله**) وأن الوعـــد بالجنة لـــ (**من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب**) كـــان لابد للمؤمن أن يتحسس قلبه ويعرف مكمن الداء وسبب المرض ويشرع في العلاج قبل أن يطغى عله الران فيهلك والأمر عظيم والشأن خطـــير فإن الله قد حذرنا من القلب القاسي والمقفل والمريض والأعمى والأغلف والمنكوس والمطبوع المختوم عليه .

لــذا كانت فراسة مدير ندوة الحبيب الجفري بجريدة الأهرام في تقديم سؤال في غاية الأهمية وتصدى لقضية خطيرة فقدت الأمة اليوم مـــن يدافع عنها وأصبحت مسرحا لمن يريد أن يعلو على الأكتاف فما علــيه إلا أن يـــنال من الصوفية وأوضح فضيلة الشيخ المنهج كله في كلمه أخذناها من السؤال وبدئنا في شرحها حتى تعم الفائدة به إن شاء الله ... أســـأل الله أن ينفعني بهذا العمل وإخواني المسلمين وأن يجزي بالجـــزاء الأوفى من ساهم في إخراجه وهو سبحانه المسؤول أن يرقق قلوبنا ويهدينا إنه نعم المولى وهو حسبنا ونعم الوكيل .

تيسير كمال عزب

نص السؤال

هذا السؤال قدم لفضيلة الشيخ بندوة بالأهرام قال من يدير الندوة: أرى في حديث فضيلتكم صوفية عالية فهل تؤمن بأن الصوفية هي حل لكل مشاكلنا الاقتصادية والسياسية وغيرها؟

الحبيب علي : الصوفية ليست الطواف حول القبور أو الصياح أو لبس الثياب المرقعة وهناك من يراها (كارنيه) في طريقة أما التصوف حقا فهو علم إصلاح القلوب وهو منهج كامل متكامل لا صلة له بالمعاني الخاطئة والتصورات المغلوطة التي ذكرتها الآن ومرجع التصوف في الكتاب والسنة هو مراقبة الله مصداقاً لقول رسول الله **(الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك).**

وهذا العلم يختلف عن علم الفقه والحديث وبقية العلوم في أشياء ويتفق معها في كثير من الأشياء فهو علم كامل له قواعده وأصوله ومن الجهل أن نقول إن التسمية لم نسمع عنها أيام رسول الله ﷺ فننكر الموضوع برمته والتصوف سمي هكذا لأن بعض الزهاد وبعض أقطابه لبسوا الصوف كعلامة للبعد عن الدنيا وليست هناك علاقة بين التسمية والمسمى فالفقه يعلمنا الأحكام والشريعة كيف نصلي؟ كم ركعة نصلي؟ كيف نتطهر للصلاة؟ كيف نصوم؟ أما التصوف فهو معنى لكيفية أن تكون خاشعا لله في صلاتك أو كيف يقبل منك الله عباداتك، كيفية التوجه بقلب سليم إلى الله في كل معاملاتنا؟ فالتصوف من هنا يعني بتهذيب النفوس وإصلاحها من أمراضها ولو تأملنا حال أمتنا وحال واقعنا

ومشـــكلاتنا الـــيوم سنجدها لا تحتاج منا إلا تنقية نفوسنا ليس أكثر إذن فالتصـــوف بمعـــناه هذا جزء أساسي من أجزاء الإسلام والتاريخ يحكي بطـــولات وأمجاد ومكانات كبيرة لأقطاب التصوف كالسيد أحمد البدوي وسيدي أبي الحسن الشاذلي وغيرهم كثيرين .

كيف تصلح القلوب ؟

أولاً : الإخلاص

قـــال ﷺ : **(إنما الأعمال بالنيات)**، إنه أهم حديث، علمنا إياه ﷺ في كل شيء، في الصلاة والصيام والحج وغيرها..

قـــال ﷺ : **(من غزا في سبيل الله ولم ينوي إلا عقالاً فلهوما نوى)..،** كذلك فإن بعث الناس على حسب نياتهم : **(إنما يبعث الناس على نياتهم)..**

أهمية الإخلاص :

١- النجاة تكون بسببه في الآخرة.

٢- اجـــتماع القلـــب في الدنيا وزوال الهم لا يكون إلا به : **(مـــن كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله وأتته الدنـــيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر عليه)** .

٣- مصـــدر رزق عظـــيم للأجر وكسب الحسنات **(إنك لن تـــنفق نفقـــة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليه حتى ما تجعل في فم امرأتك)** (رواه البخاري) .

٤- ينجـــي مـــن العذاب العظيم يوم الدين فقد أخبرنا ﷺ عن أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة وهم متصدق أنفق ليقال جواد، وقـــاريء تعلـــم العلم وعلمه ليقال عالم، ومجاهد قاتل ليقال جريء..، وهذا الحديث حدث به أبو هريرة فكان يغشى عليه من هو له كلما أراد التحديث به، ويمسح وجهه بالماء حتى استطاع التحديث به. وفي مجال عدم الإخلاص في طلب العلم يقول ﷺ : **(من تعلم علماً مما يبتغى به وجـــه الله لـــم يتعلمه إلا ليصيب به عرض من عرض الدنيا لم يجد عـــرف الجنة يوم القيامة)**، وقال: **(من تعلم العلم ليماري به السفهاء أو ليباهي به العلماء أو ليصرف به وجوه الناس إليه فهو في النار)**.

الإخـــلاص يـــريح الناس يوم يقول الله للمرائين اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون بأعمالكم في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء.

الإخـــلاص ينجي الإنسان من حرمان الأجر ونقصانه ولذلك فإن النبـــي ﷺ جـــاءه رجل غزى يلتمس الأجر والذكر فقال **(لا شيء له)** "ثلاثاً" إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغي به وجهه.

ابـــن مكرز رجل من أهل الشام قال : يارسول الله رجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضاً من عرض الدنيا فقال ﷺ : **(لا أجر لـــه)** . فأعظم ذلك الناس فقالوا عد لرسول الله ﷺ فلعلك لم تفهمه فقال له **(لا أجر له)**.

۞ قال ﷺ : (قال الله تعالى : **أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه)**.

كذلك الإخلاص هو أساس أعمال القلوب، وأعمال الجوارح تبع ومكمل له، الإخلاص يعظم العمل الصغير حتى يصبح كالجبل، كما أن الرياء يحقر العمل الكبير حتى لا يزن عند الله هباء، لقوله تعالى ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾(الفرقان:٢٣)

قال ابن المبارك: ((رب عمل صغير تكثره النية ورب عمل كبير تصغره النية)).

الإخلاص مهم جداً لأن أغلب الناس يعيشون في صراعات داخلية ويعانون من أشياء فحرموا البركة والتوفيق إلا من رحمه الله، فكيف يكون النصر وتعلم العلم إلا من المخلصين، الإخلاص مهم في إنقاذنا من الوضع الذي نعيش فيه، فقد أصبح عزيزاً نادراً قليلاً، مشاريع ودعوات تلوثت بالرياء، حركات إسلامية دمرت بسبب افتقاد الإخلاص وبعد أن أريد بها الرئاسة والجاه والمال..

يقول ابن أبي جمرة وهو من كبار العلماء: وددت لو أنه كان من الفقهاء من ليس له شغل إلا أن يعلم الناس مقاصدهم في أعمالهم ويقعد للتدريس في أعمال النيات ليس إلا، فإنه ما أتى على كثير من الناس إلا من تضييع ذلك.

ومن فوائد الإخلاص أنه يقلب المباحات إلى عبادات وينال بها عالي الدرجات، قال أحد السلف: إني لأستحب أن يكون لي في كل شيء نية حتى في أكلي ونومي ودخولي الخلاء وكل ذلك مما يمكن أن يقصد به التقرب إلى الله. لأن كل ما هو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب للمهمات مطلوب شرعاً.

النية عند الفقهاء: تمييز العبادات عن العادات وتمييز العبادات عن بعضها البعض، إرادة وجه الله ﷻ .

الإخلاص ينقي القلب من الحقد والغل ويسبب قبول العمل لأن النبي ﷺ قال: **((إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغي به وجهه)).**

الإخلاص سبب للمغفرة الكبيرة.

والنوع الواحد من العمل قد يفعله الإنسان على وجه يكمل فيه إخلاصه فيغفر فيه كبائر، وإلا فأهل الكبائر كلهم يقولون لا إله إلا الله. كالبغي التي سقت كلباً فقد حضر في قلبها من الإخلاص ما لا يعلمه إلا الله فغفر الله لها.

تنفيس الكروب لا يحدث إلا بالإخلاص، والدليل على ذلك حديث الثلاثة الذين حبستهم صخرة ففرج الله همّهم، وكان منهم الرجل الذي وفى عاملاً أجره ونماه وصبر على ذلك سنين، وقد كان يقول كل واحد منهم اللهم إنك إن كنت تعلم أننا فعلنا ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه.

وبالإخلاص يرزق الناس الحكمة، ويوفقون للصواب والحق ﴿ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانًا ﴾(الأنفال:٢٩)، وبالإخلاص يدرك الأجر على عمله وإن عجز عنه بل ويصل لمنازل الشهداء والمجاهدين وإن مات على فراشه ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾(التوبة:٩٢) . وقال ﷺ : **((إن أقواماً خلفنا في المدينة ما**

سلكنا شعباً ولا وادياً إلا وهم معنا حبسهم العذر)(رواه البخاري). وفي مسلم: **(إلا شاركوكم في الأجر)** .

بالإخلاص يؤجر المرء ولو أخطأ كالمجتهد والعالم والفقيه، وهو نـوى بالاجتهاد استفراغ الوسع وإصابة الحق لأجل الله، فلو لم يصب فهو مأجور على ذلك..

فالمـرء يـنجو من الفتن بالإخلاص، ويجعل له حرز من الشهوات ومـن الوقوع في براثن أهل الفسق والفجور، لذلك نجى الله يوسف عليه السـلام من امرأة العزيز ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾(يوسف:٢٤) ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ ﴾(الصافات:٤٠-٤٣)

الإخلاص في التوحيد: قال ﷺ : **((ما قال عبد لا إله إلا الله قط مخلصاً إلا فتحت له أبواب السماء حتى تفضي إلى العرش ما اجتنب الكبائر)).**

-في السجود : قال ﷺ : **((ما من عبد يسجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة وحط بها عن خطيئة)).**

-في الصيام: قال ﷺ : **((من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه))، ((من صام يوماً في سبيل الله باعد الله وجهه عن النار سبعين خريفاً)).**

-فـي قـيام الليل: قال ﷺ : **((من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه)).**

- **الإخــلاص في ترك الحرام،المحبة في الله، الصدقة....**(حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله).

- **الإخلاص في الخروج إلى المساجد** ((خرج للمسجد لا يخرجه إلا الصــلاة لـم يخطو خطوة إلا رفعت له بها درجة وحطت به خطيئة، فإن صلى ما دامت الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه اللهم صل عليه اللهم صل عليه اللهم ارحمه، ولا يزال أحدكم في صلاة ما انتظر الصلاة)).

- **الإخــلاص فــي طلب الشهادة:** ((من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه)).

- **الإخــلاص في اتباع الجنائز:** ((من اتبع جنازة مسلم إيماناً واحتساباً وكان معه حتى يصلى عليها ويفرغ من دفنها فإنه يرجع من الأجر بقيراطين كل قيراط كأحد ومن صلى ثم رجع قبل أن يدفن فإنه يرجع بقيراط)) .

- **الإخلاص في التوبة:** ((قصة قاتل المائة نفس وملائكة الرحمة)).

الإنسان يحتاج أن يبين لنفسه بالكلام أشياء مما ينويه حتى يزداد أجــره كــرجل لــيس لديه مال فيقول لوكان لي مثل هذا عملت مثلما يعمل. قال ﷺ : ((فهما في الأجر سواء)).

لقــد مــر في الأمة كثير من المخلصين كانت سيرتهم نبراساً لمن بعدهم وقدوة وخيراً، لذلك أبقى الله سيرتهم وذكرهم حتى يقتدي بهم من بعدهــم وعلــى رأس هــؤلاء الأنبياء، النبي محمد ﷺ وحواريو الأنبياء والصحابة الذين فتحوا البلاد بإخلاصهم ومن بعدهم من التابعين..

۞ يقول عبدة بن سليمان: كنا مع سرية مع عبد الله بن المبارك في بلاد الروم، فلما التقى ساعة فطعنه ازدحم الناس عليه ليعرفوا من هو فإذا هو يلثم وجهه، فإذا هو عبد الله بن المبارك فقال لائماً أعنت يا أبا عمر ممن يشنع علي.

۞ يقــول الحســن: إن كــان الرجل جمع القرآن ولما يشعر به النــاس، وإن كان الرجل لينفق النفقة الكثيرة ولما يشعر الناس به، وإن كــان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته ولم يشعر الناس به، ولقد أدركــت أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقدرون أن يعملونه في السر فيكون علانية أبداً.

لقــد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء ولا يسمع لهم صوت إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم ((ادعوا ربكم تضرعاً وخفية)).

۞ يقــول علي بن مكار البصري الزاهد : ((لأن ألقى الشيطان أحــب إلي من أن ألقى فلاناً أخاف أن أتصنع له فأسقط من عين الله)) فقد كان السلف يخشون من قضية المجاملات.

۞ قــال الذهبــي: يقــول ابــن فارس عن أبي الحسن القطان: ((أصبت ببصري وأظن أني عوقبت بكثرة كلامي أثناء الرحلة)) قال الذهبــي: صــدق والله فإنهم كانوا مع حسن القصد وصحة النية غالباً يخافون من الكلام وإظهار المعرفة.

۞ قــال هشام الدستوائي: ((والله ما أستطيع أن أقول إني ذهبت يوماً قط أطلب الحديث أريد به وجه الله ﷻ)).

۞ يقــول عمــر بن الخطاب ﷺ : ((فمن خلصت نيته في الحق ولو على نفسه كفاه الله ما بينه وما بين الناس)).

۞ ومــن عجائــب المخلصين ما حصل لصاحب النفق، حاصر المســلمون حصناً واشتد عليهم رمي الأعداء، فقام أحد المسلمين وحفر نفقــاً فانتصــر المسلمون، ولا يُعرَف من هو هذا الرجل، وأراد مَسْلَمَة يــريد أن يعــرف الرجل لمكافأته،ولما لم يجده سأله بالله أن يأتيه، فأتاه طــارق بلــيل وسأله شرطاً وهو أنه إذا أخبره من هولا يبحث عنه بعد ذلك أبداً، فعاهده، وكان يقول : ((اللهم احشرني مع صاحب النفق)).

وعمل الخلوة كان أحب إلى السلف من عمل الجلوة.

۞ يقول حماد بن زيد : كان أيوب ربما حدث في الحديث فيرقّ وتدمع عيناه، فيلتفت وينتخط ويقول ما أشد الزكام!!، فيظهر الزكام لإخفاء البكاء.

۞ قال الحسن البصري: ((إن كان الرجل ليجلس المجلس فتجيئه عبرته فيردها فإذا خشي أن تسبقه قام وذهب وبكى في الخارج)).

۞ يقــول محمــد بــن واسع التابعي: ((إن كان الرجل ليبكي عشرين سنة وامرأته لا تعلم)).

۞ للإمــام المــاوردي قصة في الإخلاص في تصنيف الكتب، فقد ألف المؤلفات في التفسير والفقه وغير ذلك ولم يظهر شيء في حياته لما دنــت وفاتــه قــال لشخص يثق به: الكتب التي في المكان الفلاني كلها تصــنيفي وإنما إذا عاينت الموت ووقعت في النزع فاجعل يدك في يدي

فإن قبضت عليها فاعلم أنه لم يقبل مني شيء فاعمد إليها وألقها في دجلة باللـــيل وإذا بسطت يدي فاعلم أنها قبلت مني وأني ظفرت بما أرجوه من النية الخالصة، فلما حضرته الوفاة بسط يده، فأظهرت كتبه بعد ذلك.

كـــان علـــي بـــن الحســـن يحمل الخبز بالليل على ظهره يتبع به المســـاكين بالظلمـــة، فالصدقة تطفيء غضب الرب، وكان أهل بالمدينة يعيشـــون لا يدرون من أين معاشهم، فلما مات عرفوا، ورأوا على ظهره آثاراً مما كان ينقله من القرب والجرب بالليل فكان يعول ١٠٠ بيت .

تلــك الأحـــوال والقصـــص أظهـــرها الله ليكون أصحابها أئمة ﴿ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾(الفرقان:٧٤) .

۞ وهكـــذا كان أحدهم يدخل في فراش زوجته فيخادعها فينسل لقـــيام اللـــيل وهكذا صام داود بن أبي هند أربعين سنة لا يعلم به أهله فكان يأخذ إفطاره ويتصدق به على المساكين ويأتي على العشاء..

۞ وهذا أعرابي كان مع النبي ﷺ وقال له أهاجر معك، فغنموا بعد خيبر وقسم للأعرابي وأصحابه وكان يرعى دوابهم فلما جاءوه قال للنبي ﷺ مـــا هذا الذي وصلني؟ ما على هذا اتبعتك ولكن اتبعتك على أن أرمى إلـــى هاهـــنا بســـهم فأموت فأدخل الجنة. قال ﷺ : ((**إن تصدق الله يصـــدقك**)) ، فلبـــثوا قليلاً وهاجموا العدو وأثاب الله الأعرابي كما طلب فقـــيل أهو أهو قال ﷺ: ((**صدق الله فصدقه**)) فكُفِّن في جبة النبي ﷺ ثم قدمـــه فصلى عليه فكان فيما ظهر من دعاء النبي ﷺ في الصلاة ((**اللهم هذا عبدك خرج مهاجراً في سبيلك وقتل شهيداً أنا شهيد على ذلك**)).

قال بعض العلماء في الإخلاص :

ﷺ **قال إبراهيم بن أدهم:** ما صدق الله عبداً أحب الشهرة.

ﷺ **قال بعضهم:** ينبغي للعالم أن يتحدث بنية وحسن قصد، فإن أعجبه كلامه فليصمت وإن أعجبه الصمت فلينطق. فإن خشي المدح فليصمت ولا يفتر عن محاسبة نفسه فإنها تحب الظهور والثناء.

ﷺ سئل سهل بن عبد الله التستوري : أي شيء أشد على النفس؟ قال: الإخلاص لأنه ليس لها فيه نصيب. فمع الإخلاص تنسى حظوظ النفس.

ﷺ قال سفيان: ما عالجت شيئاً أشد عليّ من نيتي إنها تتقلب علي. إذا أراد أن يجاهد نفسه يجد تقلبات، ولا يدري أهو في إخلاص أم رياء، وهذا طبيعي أن يشعر أنه في صراع لا تسلم له نفسه دائماً فهو يتعرض لهجمات من الشيطان، والنفس الأمارة بالسوء، وهذا فيه خير، أما من اطمأنت نفسه بحاله فهذه هي المشكلة.

ﷺ قال ابن يحيى بن أبي كثير: تعلموا النية فإنها أبلغ من العمل.

ﷺ قال الزبيد اليامي: إني أحب أن تكون لي نية في كل شيء حتى في الطعام والشراب.

ﷺ عن داود الطائي : رأيت الخير كله إنما يجمعه حسن النية وكفاك به خيراً وإن لم تنضب. أي حتى وإن لم تتعب فإن ما حصلته من اجتماع نفسك لله وإخراج حظوظ النفس من قلبك، هذا أمر عظيم.

﴿ أبـو بكر الصديق ﷺ ما سبق الناس بأنه كان أكثرهم صلاة وصيام بل بشيء وقر في قلبه.

﴿ قـال داود: البر همة التقي، ولو تعلقت جميع جوارحه بحب الدنيا لردته يوماً نيته إلى أصلها.

﴿ قـال يوسـف بن أسباط: تخليص النية من فسادها أشد على العاملين من طول الاجتهاد.

﴿ قـيل لـنافع بن جبير : ألا تشهد الجنازة فقال: كما أنت حتى أنوي. أي انتظر حتى أجاهد نفسي.

﴿ قال الفضيل: إنما يريد الله ﷻ منك نيتك وإرادتك.

ومـن أصـلح الله سريرته أصلح الله علانيته ومن أصلح ما بينه ومـا بيـن الله أصلح الله ما بينه وبين الناس، وما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله في صفحات وجهه وفلتات لسانه.

والمخلـص مـن يكـتم حسناته كما يكتم سيئاته ومن شاهد في إخلاصه الإخلاص فإن إخلاصه يحتاج إلى إخلاص.

تنبيهات في مسألة الإخلاص :

١- متى يكون إظهار العمل مشروعاً؟

قـال ابـن قدامـة: {فصـل في بيان الرخصة في قصد إظهار الطاعـات} قال: وفي الإظهار فائدة الإقتداء، ومن الأعمال ما لا يمكن

(٢)

الإسرار به كالحج والجهاد، والمظهر للعمل ينبغي أن يراقب قلبه حتى لا يكــون فــيه حــب الرياء الخفي بل ينوي الإقتداء به {إذاً ينبغي أن نحســن نياتــنا في الأعمال المظهرة لندفع الرياء وننوي الإقتداء لنأخذ الأجــر}، قــال ولا ينبغــي للضعيف أن يخدع نفسه بذلك، ومثل الذي يظهــره وهوضعيف كمثل إنسان سباحته ضعيفة فنظر إلى جماعة من الغرقى فرحمهم فأقبل إليهم فتشبثوا به وغرقوا جميعاً.

المسألة فيها تفصيل :

- الأعمال التي من السنة أن يكون عملها سرّاً يسرّ.

- الأعمال التي من السنة أن يظهرها يظهرها.

- الأعمــال التي من الممكن أن يسرها أو يظهرها، فإن كان قوياً يــتحمل مدح الناس وذمهم فإنه يظهرها وإن كان لا يقوى فيخفي، فإذا قويت نفسه فلا بأس في الإظهار لأن الترغيب في الإظهار خير.

ورد عن بعض السلف أنهم كانوا يظهرون بعض أعمالهم الشريفة ليقتدى بهم كما قال بعضهم لأهله حين الاحتضار ((لا تبكوا علي فإني ما لفظت سيئة منذ أسلمت)).

قال أبو بكر بن عياش لولده ((يا بني إياك أن تعصي الله في هذه الغــرفة فإنــي ختمــت القرآن فيها اثنتا عشرة ألف ختمة)) من أجل موعظــة الولــد، فمن الممكن أن يظهر المرء أشياء لأناس معينين مع بقاء الإخلاص في عمله لقصد صالح.

٢- تــرك العمـــل خوف الرياء، وهذا منزلق كشفه الفضيل بن عــياض: تــرك العمل لأجل الناس رياء والعمل من أجل الناس شرك والإخـــلاص أن يعافــيك الله منهما. قال النووي: من عزم على عبادة وتـــركها مخافة أن يراه الناس فهو مرائي" لأنه ترك لأجل الناس" لكن لوترك العمل ليفعله في الخفاء. فمن ترك العمل بالكلية وقع في الرياء، وكذلـــك مـــن كـــان يستحب في حقه إظهار العمل فليظهره كأن يكون عاملاً يقتدى به أو أن العمل الذي يعمله المشروع فيه الإظهار.

٣- أن من دعا إلى كتم جميع الأعمال الصالحة من جميع الناس؛ هـــذا إنسان خبيث وقصده إماتة الإسلام، لذلك المنافقون إذا رؤوا أمر خـــير وسموه بالرياء، فهدفهم تخريب نوايا المسلمين وأن لا يظهر في المجتمع عمل صالح، فهؤلاء ينكرون على أهل الدين والخير إذا رؤوا أمـــراً مشـــروعاً مظهراً خصوصاً إذا أظهر عمل خير معرض للأذى فيظهره احتسابا لإظهار الخير فيستهدفه هؤلاء المنافقون فليصبر على إظهاره ما دام لله، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ ﴿٧٩﴾ ﴾(التوبة:٧٩) .

علامات الإخلاص :

١- الحماس للعمل للدين.

٢- أن يكون عمل السر أكبر من عمل العلانية.

٣- المبادرة للعمل واحتساب الأجر.

٤- الصبر والتحمل وعدم التشكي.

٥- الحرص على إخفاء العمل.

٦- إتقان العمل في السر.

٧- الإكثار من العمل في السر.

ثانياً : التوكل :

التوكل مقام جليل عظيم الأثر، بل ومن أعظم واجبات الإيمان وأفضل الأعمال والعبادات المقربة إلى الرحمن، وأعلى مقامات توحيد الله ﷻ، فإن الأمور كلها لا تحصل إلا بالتوكل على الله والاستعانة به، ومنزلة التوكل قبل منزلة الإنابة لأنه يتوكل في حصول مراده فهي وسيلة والإنابة غاية، وهو من أجل المراتب وأفضلها وأعمها قدراً..

۞ التوكل نصف الدين والنصف الثاني الإنابة فإن الدين استعانة وعبادة، فالتوكل هو الاستعانة والإنابة هي العبادة.

والتوكل متعلق بكل أمور العبد الدينية التي لا تتم الواجبات والمستحبات إلا بها. ومنزلته أجمع وأوسع المنازل ولا تزال معمورة بالنازلين لسعة متعلق التوكل وكثرة حوائج العالمين..!!

۞ التوكل يتعلق بكل شيء واجبات ومستحبات ومباحات ولقد كثرت حوائج الناس ولابد لهم من التوكل على الله في قضائها.

۞ فمنزلة التوكل تشتد الحاجة إليها وعباد الله تعالى حقاً إذا

نـــابهم أمر من الأمور فروا إلى الله منيبين إليه ومتوكلين عليه، وبذلك يسهل الله الصعاب وييسر الله العسير ويحقق العبد ما يريد وهو مطمئن البال هادىء النفس راضٍ بما قضاه الله ﷻ وقدره.

۞ ولـــو توكل العبد على الله حق توكله في إزالة جبل من مكانه وكان مأموراً بإزالته لأزاله.

فالمســـلم لا يرى التوكل على الله في جميع أعماله واجباً فقط بل يـــراه فريضة دينية ليس متعلقاً فقط بالأمور الدينية بل بالأمور الدنيوية ولـــيس بالأمور الدنيوية وطلب الرزق فقط بل بعبادة الله ﷻ فهو عقيدة ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾(المـــائدة:٢٣) ولهذا كان التوكل على الله نصف الدين، بل هو الواجب لأنه أصل من أصول الإيمان .

۞ فـــإن التوكل من على الله واجب من اعظم الواجبات كما أن الإخـــلاص لله واجب وقد أمر الله بالتوكل في غير آية أعظم مما أمر بالوضوء وغسل الجنابة، ونهى عن التوكل على غيره سبحانه.

۞ والتوكل جامع لمقام التفويض والاستعانة والرضا لا يتصور وجودٌ بدونها.

فالـــتوكل هـــو أحـــد مباني التوحيد الإلهية كما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾. وأيضاً يدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ (هـــود:١٢٣). وقوله تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾(التوبة:١٢٩).

وهـذا الـتوكل لا يقوم به على وجه الكمال إلا خواص المؤمنين كمـا في صفة السبعين ألفاً، فالذي يحقق التوكل ليس كل الناس بل هم طائفـة قليلة من الناس ذكرهم النبي ﷺ : ((هذه أمتك يدخل الجنة من هـؤلاء سـبعون ألفـاً بغير حساب ثم دخل ولم يبين من هم وما هي صـفاتهم فأفاض القوم وقالوا نحن الذين آمنا بالله واتبعنا رسوله فنحن هم أو أولادنا الذين ولدوا في الإسلام فإنا ولدنا في الجاهلية فبلغ النبي ﷺ هـذا القول منهم فخرج وقال : هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون)) .

۞ فقـال عكاشـة بن محصن: أمنهم أنا يا رسول الله؟ قال نعم، فقال آخر أمنهم أنا؟ فقال ﷺ : ((سبقك بها عُكاشة ـ أو عُكّاشة)).

وكان من الصحابة المتوكلين عمران بن حصين وهو من سادات المتوكليـن، ﷺ، الـذي كان به بواسير وكان يصبر على ألمها فكانت الملائكـة تسلم عليه فاكتوى فانقطع تسليم الملائكة عليه ثم ترك الكي وصبر على الألم فعاد سلام الملائكة عليه.

كما جاء في حديث مسلم عن مفرّق قال لي عمران بن حصين أحدثك حديثاً عسى الله أن ينفعك به إن رسولَ الله ﷺ جمع بين حجة وعمرة ثم لم يـنه عـنه حتى مات ولم ينزل فيه قرآن يحرمه وقد كان يُسلَّم عليّ حتى اكتويت فَتُرِكْت ثم تركتُ الكي فعاد{أي السلام عليه من قِبَل الملائكة}.

۞ فالتوكل على الله صفة علية من صفات عباد الرحمن وشعار يتمـيزون به عمن سواهم وعلامة بارزة لأهل الإيمان كما قال تعالى:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾(الأنفال:٢) .

لا يـــرجون سواه ولا يقصدون إلا إياه ولا يلوذون إلا بجنابه ولا يطلـــبون الحوائج إلا منه ولا يرغبون إلا إليه ويعلمون أنه ماشاء كان ومـــا لـــم يشأ لم يكن وأنه المتصرف بالملك لا شريك لـــه ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب كما قال ابن كثير رحمه الله، وقال سعيد بن جبير : التوكل على الله جماع الإيمان.

۞ وقـــد أمر الله بالتوكل وحث على ذلك في مواضع كثيرة كما في قوله تعالى ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾(آل عمـران:١٢٢) في سبعة مواضع في القرآن الكريم :

١- ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾(النمل:٧٩)

٢- ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ ﴾(هود:١٢٣) .

٣- ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾(الفرقان:٥٨) .

٤- ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ (آل عمران:١٥٩) .

فالتوكل سبب لنيل محبة الله وهي الصفة التي تميز بها المؤمنون عن غيره ولذلك أوجب الله التوكل.

٥- وإذا قـيل ما حكم التوكل؟ فيقال واجب مثل أصل محبة الله والصـبر والإنابة بل إن التوكل شرط الإيمان. والمفهوم من الآية ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾(المائدة:٢٣) أنه إذا انتفى التوكل انتفى الإيمان.

٦- أمـر الله بالـتوكل وقرنه بالإيمان ليدل بذلك على أنهما جـزءان إذ الـتوكل على الوكيل هو الإيمان فأمر بالتوكل قولاً وعملاً بعد الإخبار عن محبته للمتوكل عليه ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (الملـك:٢٩) . واشـترط للإيمـان الـتوكل ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾(المائدة:٢٣)، وهـذه جاءت في قصة موسى عليه السلام ﴿ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾(يونس:٨٤) . إذ لابد من هذا لهذا.

٧- وصـار المتوكل على الله من عباد الرحمن الذين يمشون علـى الأرض هونـاً، ونعتهم الله بالمقام الجليل العظيم. وضمن الله لمن توكـل علـيه القيام بأمره وكفايته أي أن يكفيه همه وأن ينصره ويحفظه فالله ناصر دينه وكتابه والله كاف عبده بأمان، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾(الطلاق:٢) .

يقـول ابن كثير رحمه الله: ومن يتق الله فيما أمره به وترك ما نهاه عـنه يجعل له من أمره مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب أي من جهة لا تخطـر بباله. وفي هذه الآية فضل التوكل وأنه من أعظم الأسباب في جلـب المنافع ودفع المضار فقد قال ﷺ : **((لو أنكم توكلتم على الله حق**

توكلـــه لـــرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً)) (رواه الترمذي وصـــححه الألبانـــي). فأفئدة الطير مليئة بالتوكل على الله ولو أننا توكلنا على الله كمـــا يـــتوكل الطـــير لرزقنا مثل ما يرزق الطير، وقد وصف النبي ﷺ المتوكل على الله بوصفين:

أ- السعي في طلب الرزق.

ب- الاعتماد على مسبب الأسباب.

وهذا الحديث مهم في فهم قضية التوكل وفي الأخذ بالأسباب لأن الطـــير تغـــدو أي تذهـــب في الصباح وتبحث عن الرزق وتخرج من أعشاشها وهذا عمل وسعي وجهد وهو الطيران وترجع محملة بالطعام لنفسها ولأفراخها، إذاً فالسعي في طلب الرزق هو الاعتماد القوي على مســـبب الأســـباب المباحة، وقد قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(الأنفال:٤٩) والعزيز هوالارتباط ما بين نهاية الآية والتوكل والعزيز الذي لا يذل من استجار به ولا يضيع من لاذ بجنابه حكيم يدبر من توكل عليه بحكمته تدبيراً حسناً.

قـــال ابـــن كثير – رحمه الله – : ومن يتوكل على الله أي يعتمد علـــى جنابه فإن الله عزيز حكيم والتوكل مركب السائر الذي لا يتأتى الســـير إلا بـــه ومتى نزل عنه انقطع فوراً وتوقف عن السير وهذا ما لاحظه ابن القيم رحمه الله وهذا يبين منزلة التوكل وفضل التوكل.

ومما يدل على فضله وعلومنزلته أن الله أمر به في أكمل الأحوال والعبدات والمقامات:

١- مقام العبادة ﴿ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ ﴾(هود:١٢٣) فأمر الله رسوله ﷺ والمؤمنين والخلق بالعبادة والتوكل. وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ۝ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ۝ ﴾(الأحزاب:٢-٣)، توكل على الله في جميع أحوالك وأمورك فهذا التوجيه لرسول الله ﷺ ليتوكل على الله ويتقيه ويعبده ويتبع ما يوحى إليه من ربه فهو أمر له ولأمته من بعده إلى يوم القيامة.

٢- في مقام الدعوة، فجاء الخطاب لرسول الله والأصل هو خطاب لأمته إلا إذا دل الدليل على تخصيص له فقال تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۝ ﴾(التوبة:١٢٩) . فهو الذي تنتهي إليه القوة والملك والعظمة والجاه وهو حسب من لاذ به ويكفي من استجار به ويدفع عنه الشر ﷻ ويحميه، ونوح عليه السلام أيضاً في مجال الدعوة: ﴿ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ ﴾(يونس:٧١). فهذه الدعوة من نوح عليه السلام والإنذار الطويل والتذكير المستمر الذي رافقه وقابله من قومه تكذيب وإعراض بعدما بلغ الضيق منه توكل على الله وفوض الأمر إليه وهو ماضٍ في الدعوة.إذاً الداعية إلى الله إذا جُوبه بالإعراض من المدعوين والصدود والرد وعدم الاستجابة فإنه يتوكل على الله والله يكفيه شر هؤلاء المعرضين. ويوسع صدره الذي ضيقوه بإعراضهم.

٣- في مقام الحكم والقضاء، قال تعالى: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ ﴾ (الشورى:١٠) . فالرسول ﷺ أمره كله إلى الله، أناب إلى ربه وتوكل عليه وفوض أمره لله، كيف يتحاكم الناس لغير الله إذا اختلفوا بشيء من الأمر، وهذا النبي الذي أرسله يُترك ولا يتحاكم إليه وهو أولى أن يتحاكم إليه ليقول قول الفصل فيما اختلفوا فيه وكيف يتوجهون في أمر من الأمور إلى جهات أخرى والنبي موجود يقضي، فما دام القاضي والحاكم على الحق المبين فلا يبالي بما يعوقه وبمن يرد حكمه وبمن يرفض التحاكم إلى الشريعة التي يقتضي بها فإذا الحاكم والقاضي عليه التوكل على الله.

٤- في مقام المشورة: قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ (آل عمران:١٥٩)، فأخذ المشورة من باب الأخذ بالأسباب فآراء الناس أسباب تعين على الاهتداء إلى الصواب وأخذ القرار الصحيح، ولكن لا ينفك المؤمن في هذه الحالة حتى لو عندهم كبار المستشارين عن التوكل على الله. ولذلك بعض هؤلاء يغترون ويظنون أن وجود آراء المستشارين يغني عن التوكل وأنه عنده الخبراء الكبار وعنده المستشارون العظماء ونقول يمكن أن يضل هؤلاء كلهم ويأمرون بقرارات خاطئة، وقد يشيرون لأمر صائب ويخطئون في تنفيذه، إذاً لابد من التوكل على الله حتى مع أخذ الآراء.

٥- في مقام طلب الرزق، قال تعالى: ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾(الشورى:٣٦) وقال: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾(الطلاق:٢)

٦- في مقام العهود والمواثيق، وقد أخبر الله عن يعقوب عليه السلام في قصة يوسف وأخوته: ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ ﴾ (يوسف:٦٦) والموثق هو العهود والأيمان المغلظة، ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾(يوسف:٦٧) .

٧- في مقام الهجرة في سبيل الله وهو عظيم وأليم على النفس أن يترك الإنسان مأواه وداره وأمواله ويتغرب ويضحي بعشيرته وبذكريات حبيبته ولكن يهوّن عليه التوكل على الله، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾(النحل:٤١). ومن الذي يهون الهجرة والفرقة هو التوكل على الله . مهاجرة الحبشة الذين اشتد عليهم الأذى هاجروا هجرتين مشهورتين والنبي ﷺ وصاحبه أيضاً هاجروا وفي طريق الهجرة حصل ابتلاء وخوف ﴿ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا

﴿... فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾(التوبة:٤٠).

حقيقة التوكل :

۞ قـال الزبيدي في تاج العروس: الثقة بما عند الله واليأس مما فـي أيـدي الـناس، فالتوكل على الله اعتماد القلب على الله مع الأخذ بالأسـباب، مع كامل اليقين أن تعلم أن الله هو الرازق الخالق المحيي المميت لا إله غيره ولا رب سواه.

والـتوكل يتـناول الـتوكل على الله ليعينه الله على فعل ما أمره والـتوكل علـى الله ليعطـيه ما لا يقدر عليه، وكلاهما كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية، فالاستعانة تكون على الأعمال والتوكل أعمّ من ذلك فالتوكل مجلبة لمنفعة، ودفع لمضرة.

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾(التوبة:٥٩).

فـإذاً كـن شـاكراً لله ولا تخشَ شيئاً إذا فوضت أمرك لله، كن رجّاعاً لله متكلاً عليه ؛ حينها ينصرك الله.

۞ وإذا كـان الله قـد جعل لكل عمل جزاء من جنسه فقد جعل جـزاء التوكل عليه الكفاية، ومن يتوكل على الله فهو حسبه، ولو كاده كل من في الأرض جميعاً..!!

والـثقة بـالله ﷻ والتوكل عليه وتفويض الأمور يليه يريح العبد

نفسياً، لأنه الواحد مهما بذل أسباب ستبقى ثغرات يتحسب منها، ويبذل كـذا وكـذا لكـن هـذه لا يستطيع أن يفعل فيها شيء، ولو جاءوا ما استطعت..ولو كادوا لي من هذه الجهة ما لي حيلة..وضعنا احتياطات مـن هـنا ومن هنا ولكن لو جاءوا من هنا لو فعلوا من هنا ما عندنا احتـياطات...!!، فيصبح العبد مهموماً حتى مع اتخاذ بعض الأسباب.. هـناك أشياء لا يقدر عليها فالتوكل يريحه نفسياً..الأشياء التي لا حيلة له فيها ؛ الذي لا يتوكل قلق منها قلق جداً منها لأنه لم يعمل شيء في الموضوع، لكن من يتوكل على الله كفاه الله ما أهمه..

والتوكل على الله لابد من تحقيق مراتب فيه.:

١- معرفة الرب وصفاته، من قدرته وكفايته وقيوميته، أنت تتوكل على الله وتعتمد عليه يجب أن تكون مؤمنا بقوة الله وقدرته وأنه يكفيك، فالذين يعطلون أسماء الله وصفاته ويلحدون فيها سيخلون بهذه المرتبة.

٢- إثـبات الأسـباب والمسـببات وأنها لا تستقل بنفسها في التأثـير، وإن جحـد الأسباب وقال كل سبب معطل، هذا غبي مجنون..، هـناك أسباب، تنكح ليأتيك الولد وتبذر ليخرج الزرع..، ولذلك جاء رجل للنبـي ﷺ فقـال أعقلهـا وأتوكـل أم أطلقها وأتوكل...؟، قال : اعقلها وتوكل..، وأحياناً لا يجد الواحد إلا الدعاء، ونعم السبب ..، والله ﷻ علم عباده الأخذ بالأسباب فقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا ﴾(الملـك:١٥) وقـال: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾(الجمعـة:١٠)..، فالذي يقول لا أعمل شيئاً حتى يأتيني رزقـي جـاهل بشرع الله وجاهل بقدر الله ..، الله قال في سورة المزمل

﴿ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾(المــــزمل:٢٠) .. يضــــربون : يســـافرون ويذهـــبون ويتاجرون، وكان أصحاب النبي ﷺ يتاجرون في البر والبحر..ويعملون في نخيلهم وكان غسل الجمعة.. لماذا أمـــروا بـــه..؟..لأنهـــم كانوا عمال أنفسهم..يعملون في الحر والنخيل.. العـــرق يرشح على ملابس الصوف فيكون لها رائحة كريهة في المسجد، فقيل لهم (لو اغتسلتم) كما في البخاري، ولما سئل الإمام أحمد رحمه الله عـــن هـــؤلاء الذين يزعمون أنهم متوكلة ويقولون نقعد وأرزاقنا على الله ﷻ، قال الإمام أحمد : هذا قول رديء أليس الله قد قال ﴿ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ (الجمعـة:٩ـ١٠)..؟، وقال صالح بـــن أحمـــد بـــن حنـــبل: (ســـئل أبي عن قوم لا يعملون ويقولون نحن المتوكلون فقال : هؤلاء مبتدعون)..

٣- ومـــن المقامـــات التـــي يجب تحقيقها رسوخ القدم في طـــريق التوحيد..، فالعبد إذا حقق التوحيد كان له من التوكل النصيب العظـــيم ..،﴿ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾(التوبة:١٢٩) توحيد وتوكل بعده..

٤- الاعتماد على الله ﷻ في كل الأمور، بحيث يفوض إليه سائر أموره..

٥- أن يحســـن الظـــن بالله ﷻ وتفويض الأمور إلى الله ﷻ كلهـــا ويكون بيد الله أوثق منه بما في يده، لا يضطرب قلبه ولا يبالي بإقـــبال الدنـــيا وأدبارهـــا لأن اعتماده على الله ..، فحاله كحال إنسان

أعطاه ملك درهم فسرق منه، فقال الملك عندي أضعافه فلا تهتم..متى جئـت أعطيـتك أضـعافه من خزائني، فمن يعلم أن الله ملك الملوك خزائـنه ملأى فلا يقلق إذا فات شيء فإن الغني يعطيه الله بدلاً منه.. وأما حسن الظن بالله ﷻ فإن الله ﷻ قال: **(أنا عند ظن عبدي بي)** كما جاء في الحديث القدسي، فحسن الظن يدعو إلى التوكل على الله، أنت تـتوكل على من تظن أنه سينفعك، وإن الإنسان إذا علم وتيقن أن الله هو الغني القادر الحسب الكافي فيتوكل عليه..

٦- استسلام القلب لله ﷻ، فإذا استسلم كاستسلام العبد الذليل لسيده وانقياده له حصل التوكل ..

٧- الـتفويض .. ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ﴾(غافر:٤٤) أي أتوكـل علـيه واسـتعينه مع مقاطعتي ومباعدتي لكم خدعتموني ..قال ابن مسعود : (إن أشد آية في القرآن تفويضاً" ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ ﴾(الطلاق:٣) " .

قال بعضهم: (المقدور يكتنفه أمران: التوكل قبله والرضى بعده"من وجهـة نظـر الديـن والتوحيد"، فمن توكل على الله قبل الفعل ورضي بالمقضـي بعـد الفعل فهذا إنسان قائم بالعبودية فعلاً)..ولذلك انظر إلى دعـاء الاستخارة: واقدر لي الخير حيث كان كله ثم رضني به..فالتوكل إذاً على الله تفويض قبل وقوع المقدور ورضى بعد وقوع المقدور..

فعرفـنا إذاً أيها الأخوة الفرق بين التوكل والتواكل، فالتوكل فيه أخـذ بالأسباب الشرعية، فبعض الطلاب قد يذهب لاختبار ويأخذ معه

أشياء للغش ويقول هذه أسباب(!!)، فهذا التوكل بمعصية، ولكن التوكل الصحيح أن يأخذ بالأسباب الشرعية المقدور عليها .

التواكل ترك الأسباب ..ومن ترك التوكل طعن في التوحيد..ومن ترك الأسباب نقص في العقل..

والأسباب ولو كانت يسيرة وضعيفة؛ يبذلها العبد..والله ﷻ يبارك فيها ويجعل فيها أثراً، والله علمنا ذلك في قصة مريم..

توكل على الرحمن في كل حاجة

ولا تؤثرن العجز يوماً على الطلب

ألم ترَ أن الله قال لمريم

إليك فهزي الجذع يساقط الرطب

ولو شاء أن تجنيه من غير هزها

جنته ولكن كل شيء له سبب

فتخيل حال امرأة.. ضعيفة .. في حال النفاس.. أضعف ما تكون المرأة.. والنخلة شجرة قوية .. جذعها قوي.. ولكن الله قال: ﴿ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾(مريم:٢٥) ولكن بالسبب الضعيف جعل النتيجة..!..، كان من الممكن أن يسقط الثمر بلا هز.. وماذا يغني الهز من امرأة ضعيفة لشجرة قوية..، ولكن ليعلم العباد الأخذ بما أمكن من الأسباب.. هذا مبدأ مهم في قضية التوكل..

۞ والنبي ﷺ ظاهر بين درعين ولبس لئمته ووضع الخوذة على رأسه (المغفر).. ماهذا؟؟.. أخذ بالأسباب، وطريق الهجرة وأخذ دليل وتعمية الأثر..كل هذا أخذ بالأسباب..وخرج في وقت يغفل فيه الناس.. من طريق غير متوقع.. وهونبي..(حسبك الله)(والله يعصمك من الناس) ولكن الله علمنا التتبع ..الهجرة أخذ بالأسباب مع التوكل على الله..

والتوكل على الله ﷻ يجمع علم القلب وعمل القلب .. أن يعلم بأن الله مقدر الأشياء ومدبر الأشياء، وعمل القلب سكون القلب للخالق والاعتماد عليه والثقة به، فهذان أمران مهمان في التوكل يشمل التوكل علم القلب وعمل القلب..

١- أن يعلم بالأسماء والصفات..

٢- أن يسكن ويفوض ويستسلم لله ﷻ..

إذا ابتليت فثق بالله وارضَ به

إن الذي يكشف البلوى هو الله

إذا قضى الله فاستسلم لقدرته

ما لامرىءٍ حيلة فيما قضى الله

اليأس يقطع أحياناً بصاحبه

لا تيأسَنّ فنعم القادر الله

والتوكل على الله ﷻ يكون في تحصيل الحظ من الرزق والعافية ومتع الدنيا وجلب الحوائج ودفع المكروهات والمصائب الدنيوية..

كمـــا يكـــون التوكل أيضاً في عبادته ﷻ والعبد إذا كان الله ﷻ غايته فإنه يسكن ويهدأ ولا يضطرب ويسأل ربه ويدعو، والتوكل على الله مـــع إســـقاط الأســـباب طعن في العقل والدين أيضاً لأننا قد أمرنا بـــالعمل، مثل هؤلاء الذين يظنون أنهم يريدون أن يدخلون الجنة بدون أعمـــال ويقولـــون ندخل برحمة الله..!!، كما قال أحدهم : جاهدت مع أهـــل زوجتـــي فـــي إخراج المنكر من البيت ومن الوسائل والأجهزة المفســـدة وأحـــاول فيهم، وأبو زوجتي يتدخل ويقول لماذا تفكر تخرج الأجهـــزة هـــذه ؟ كلنا في رحمة الله ..، نعم كلنا في رحمة الله ولكن أليس هناك أسباب لدخول الجنة ..؟ واجتناب أسباب دخول النار..؟ ما في ابتعاد عن المحرمات..؟!.

قـــيام بالواجبات..؟! كذا برحمة الله بدون اتخاذ أسباب..؟! ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾(الأعراف:٥٦) يـــا أخي.. ليست قريب من الفاجرين الفاسقين..!!

فمشـــكلة أن يوجـــد مـــثل هؤلاء الذين لا يريدون لا بذل أسباب دنـــيوية ولا شـــرعية، وبعضـــهم يبذل أسباب دنيوية ولا يبذل أسباب شـــرعية، في الدنيا والدراسة والتحصيل والفن والأجهزة ممتاز، وفي الصـــلاة تقصـــير والمحـــرمات يقع فيها، فيأخذون بالأسباب في الدنيا ويـــتركون أســـباب الدين..كيف تنجو في الآخرة بدون أن تأخذ أسباب الجنة..؟!!..(اعملوا فكل ميسر لما خلق له) ..

الأمور التي تضاد التوكل

١- التطير والتشاؤم ..قال ﷺ (لا طيرة)..، التطير والتشاؤم من الشيء المرئي أو المسموع، كمن يرى أعور فيتشائم به، ويرى طيراً ذهب شمالاً فيتشاءم به، يريد أن يذهب لسفر أو زواج فيلغي المشروع..، هـذا ينافي التوكل على الله..، قال مثلاً كرسي الحجز في الطائرة ١٣ .. هـذا مـا أركـب فـيه.. هذا شؤم..، تجنب الرقم ١٣ ليس من الأسباب المشـروعة إطلاقاً، ذهب يضرب صفقة مع رفيقه فرأى حماته، فقال هذا نذير شؤم..ما دخلها..؟!!، فالتطير والتشاؤم منافي للتوحيد .

ولمـا جاء أحد المنجمين لعلي ﷺ وهو خارج لقتال البغاة، قال هنا الآن نـوء العقرب إذا خرجت يا علي ستخسر في المعركة وتنهزم فخرج علـي ثقة بالله وتوكلاً عليه وكتب الله لَه في تلك الغزوة والخروج البركة والخـير والفلاح والانتصار، ولذلك المرء يتعمد مخالفة العرافين والكهنة ..، فـإذا قـال لَه كاهن خروجك هذا شر والنجم كذا فليقل بل مخالفة لك وإيمانـاً بالتوحـيد وإيمانـاً بالسـنة سـأخرج وأخـالفك يا أيها الدجال والمشـعوذ..وإتيان الكهان والتعلق بهم..، تعليق التمائم يخالف التوكل..، لأن الإنسان (من تعلق شيئاً وكل إليه)..

لذلـك الإنسـان لـو علق أشياء ولو بالقرآن يتعلق قلبه بالجلد هذا والـورق والحـبر المكـتوب مع أن المفترض أن يتعلق قلبه بالله وليس بـأوراق وجلود يجعلها على معصمه أو يعلقها في رقبته، وبعضهم يقول هـذه أسـباب..!!!!..،هذا خلافنا مع بعض الناس.. أمرنا باتخاذ أسباب شرعية..أو أي أسباب..؟!!!!..، التوكل لابد أن يكون معه أسباب شرعية

..، فـــالذي يلبس حلقة أو خيط أو يتبرك بالأشجار ويكتب التعاويذ ويعلقها هـــذه أسباب غير مشروعة فكيف تتخذها..؟!!.(من تعلق شيئاً وكل إليه) وحرم من التوكل على الله وصار توكله على هذا الشيء الموضوع، لذلك تـــرى الـــناس الذيـــن توحيدهم ضعيف يكثر من هذه الأشياء..يعلق في الســـيارة والبيـــت وعلى رقبته وأولاده ومنها أشياء شركية وكذا .. لأنه يـــريد أي أسباب.. ماعنده توحيد وتوكل قوي فهو خائف ويريد أي سبب فـــيفعل أي شـــيء ولو كان غير مشروع، لذلك ينقلب على عقبيه ويرتد على دبره ولا يحصل له ما يريد ويبقى في خوف وهم..

٢- ولابد في التوكل على الله من السعي في طلب الرزق، وهذا مهم جداً في عصر شاعت فيه البطالة، بعض الناس يتواكلون على بعض، والابـــن على أبيه والأخ على أخته الموظفة، وكثير منهم لا يريدون العمل، والله أرشدنا وفتح أبواب لطلب الرزق وأشياء مذكورة في الكتاب والسنة..

أ- فأول وأعظم سبب للرزق وأحل الحلال في الأرض هو غـــنائم القـــتال ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلاً طَيِّبًا ۚ ﴾(الأنفال:٦٩) فالعلمـــاء تناقشـــوا فـــي قضـــية ماهو أطيب الرزق وأحل الحلال تجارة زراعة وصـــناعة.. قالوا : إن أحل الحلال على وجه الأرض غنائم المعارك فـــي سبيل الله لأن الله قال ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلاً طَيِّبًا ۚ ﴾(الأنفال:٦٩) والرسول ﷺ قال: (جعل رزقي تحت ظل رمحي)..

ب- العمـــل بالـــيد فالرسول ﷺ قال: (**ما أكل أحد طعاماً قط خـــيراً من عمل يده**) وقال : (**لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه**)..

ج- التجارة وهي عمل كثير من المهاجرين وكذلك الأنصار ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾(الجمعة:١٠)، وعبد الرحمن بن عوف قال: (دلوني على السوق)، كان الصحابة يغدون إلى السوق ويشترون ويبيعون.

د- الحرث والغرس والزرع، وقال أن الزراعة فيها ميزة في التوكل على الله أكثر من غيرها فالمزارع إذا بذر عنده في قلبه توكل على الله أكثر من التاجر، كلهم يحتاجون التوكل لكن الزارع أكثر، فبعضهم قدم الزراعة من هذه الجهة لما فيها من مزيد تعلق القلب من الله في رجاء حصول النماء والنبات لهذا المحصول وبأن الثمرة تظهر ولا يصيبها آفة وهكذا ..

ثم إن الإنسان يبذل الأسباب في العلاج، غير طلب أسباب الرزق، فمثلاً قال النبي ﷺ : **(ما أنزل الله من داء إلا وأنزل له شفاء)** (**تداووا عباد الله)** والتداوي ما هو إلا أخذ بالأسباب في هذا المجال..

فوائد التوكّل

١- بسببه النصر على الأعداء ﴿ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ ﴾ ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾(الأحزاب:٢٢)

٢- يجلب المصالح ويدفع المضار والمصائب ويجلب الرزق ويعجل الشفاء ..

٣- التوكل على الله سبب لقوة القلب ونشاطه..

٤- وقاية من الانهيارات النفسية والعصبية..

٥- يباعد بين الإنسان والانتحار وما يفعله هؤلاء الذين عدموا التوكل فيئسوا وأصيبوا بالإحباط فلم يبق لهم في الدنيا مكان في نظرهم..

٦- سبب للحفظ في النفس والمال والولد والأهل ﴿ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ ﴾(يوسف:٦٦)، يعقوب قالها لبنيه..! ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾(يوسف:٦٧) وقال: ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ ﴾(المجادلة:١٠) .. وعندما يخرج الإنسان من بيته يقول: (**بسم الله توكلت على الله**) فماذا يحدث له؟!. يقول له ملك: (هُديت، وُقيت، كُفيت من كل شر)..

٧- التوكل على الله يبعث في القلب الحماس والعزيمة للعمل لأنه فيه فتح لباب الأخذ في الأسباب والأسباب المشروعة، لما يفهم المرء التوكل فهماً صحيحاً ينطلق للعمل ويأخذ بالأسباب، وهذا فيه إنتاجية وفيه ثمار تحدث..

٨- والتوكل على الله يرفع الروح المعنوية حتى لو أصاب الإنسان مصائب وشدائد، ففي الجراحات والقتل الذي أصابهم مصيبة فوقها يأتي خبر أن المشركين جمعوا عليكم ليعيدوا الكرة عليكم ﴿ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ ﴾ (آل عمران:١٧٣ــ١٧٤)..

٩- التوكل على الله يجلب الرزق كما يرزق الطير وقد تقدم الكلام في هذا..

١٠- التوكل على الله يحقق النتيجة فالطالب يريد النجاح والتاجر يريد الربح وطالب الوظيفة يريد التعيين في العمل وهكذا..

١١- من توكل على الله يشعر بمعية ربه له أنه معه ناصره مغنيه كافيه واقيه..

١٢- التوكل على الله يجلب محبة الرب للعبد،وكذلك العبد يحب الرب نتيجة التوكل، لأنه يرى آثار توكله على ربه وكيف أن الله يعطيه على نيته وتوكله عليه فيحب ربه..

١٣- التوكل من حققه دخل الجنة بلا حساب ولا عذاب وهذا أعظم ثمرات التوكل كما جاء في حديث السبعين ألف..

١٤- التوكل على الله عز وغنى ..

قصص مع المتوكلين وعلى رأسهم الرسول ﷺ..

لما نزل مع أصحابه في واد فعلق سيفه في شجرة فتفرق الناس في الوادي يستظلون في الشجر فلم يرعهم إلا والنبي ﷺ يدعوهم فأتوه فإذا بشخص وسيف ساقط فقال الرسول إن رجلاً أتاني وأنا نائم فاتخذ السيف فاستيقظت وهو قائم على رأسي فلم أشعر إلا والسيف صلتاً أي مسلولاً..انتبه النبي والسيف فوق رأسه..أين المهرب..؟!..فقال من يمنعك مني ..؟!! قلت: الله..هذه كلمة فيها التوكل والتفويض

والاستعانة وكل شيء..قال: فشام السيف أي أغمده..وفي رواية سقط السيف من يده..، هاهو ذا جالس..كما في صحيح مسلم..

النبي ﷺ مع أبي بكر في الغار، أبو بكر خائف على النبي أكثر من خوفه على نفسه يقول : (يا رسول الله لو نظر أحدهم إلى ما بين قدميه لأبصرنا) ما بيننا وبين الهلاك إلا نظرة تحت!!..قال يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما..؟!!، هذا هو التوكل والتفويض يظهر فعلاً في أوقات الأزمات جلياً واضحاً..أن هذا العبد قلبه مفتقر إلى الرب متوكل عليه مفوض أمره إليه خصوصاً إذا لم يكن هناك أسباب تتخذ إلا تفويض الأمر إلى الله..

وجاء الإنكار من ابن عباس ﷺ على بعض أهل اليمن الذين يحجون ولا يتزودون ويقولون نحن المتوكلون فإذا قدموا مكة سألوا الناس مدوا أيديهم.. فأنزل الله ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾(البقرة:١٩٧)..

وهناك قصة لطيفة لامرأة رواها الإمام أحمد رحمه الله تعالى يقول في الحديث عن النبي ﷺ : (إن امرأة خرجت في سرية من المسلمين وتركت ثنتي عشرة عنزاً لها وصيصيتها "السيخ الذي ينسجون به الغزل" كانت تنسج بها، ففقدت عنزاً من غنمها وصيصيتها فقالت يا ربي إنك قد ضمنت لمن خرج في سبيلك أن تحفظ عليه وإني قد فقدت عنزاً وصيصيتي وإني أنشدك عنزي وصيصيتي، فجعل رسول الله يذكر شدة مناشدتها لربها ﷺ وشدة توكلها على الله وخرجت في سبيل الله ومعتمدة أن الله يحفظ مالها ولما عادت لم تقل أن الله أخلف وعده ولكن نشدت ربها ما وعد به وأخذت تلح وتلح.. قال ﷺ : (فأصبحت عنزها ومثلها وصيصيتها ومثلها)..رجع مضاعفاً..!! نامت على الدعاء والتوكل ووجدته مضاعفاً من عند الله..!!

۞ وقال الإمام أحمد في مسنده حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا عبد الحميد بن وهران قال أبو هريرة : (بينما رجل وامرأة لــه في السلف الخالــي لا يقدران على شيء فجاء الرجل من سفره فدخل على امرأته جائعــاً قد أصابته مسبغة شديدة فقال لامرأته أعندك شيء ؟..لكن رأفة بحــال الــزوج أورفع المعنويات وتسليته وما عندها شيء فلم تشأ أن تقــول لزوجها راجع جائع جداً (لا)..فالمرأة اشفاقاً على زوجها وثقة بــالله قالــت (نعم ابشر أتاك رزق الله) مع أنها ليس لديها شيء لكنها الــثقة والاعــتماد على الله ورجاء الله، فاستحثها فقال ويحكِ ابتغي إن كان عندكِ شيء..!!..قالت: نعم هنيّة..اصبر..نرجوا رحمة الله..!حتى إذا طــال علــيه الطوى وجاع زيادة فوق جوعه فقال (ويحكِ إن كان لديــكِ خــبز فأتينــي به فإني قد بلغت وجهدت فقالت نعم الآن ينضج التــنور) أوقدت الفرن والفرن ليس فيه شيء فلا تعجل فلما أن سكت عــنها ساعة، وتحينت أن يقول لها قالت هي من نفسها لوقمت فنظرت إلــى تنوري مع الثقة بما عند الله..فقامت فوجدت تنورها ملآن جنوب الغــنم..ورحيــيها تتطحنان..!!! فقامت إلى الرحى فنفضتها وأخرجت مافــي تــنورها من جيوب الغنم ..!! قال أبو هريرة فوالذي نفس أبي القاســم بــيده عــن قول محمد صلى الله عليه وسلم (لو أخذت مافي رحييها ولم تنفضها لطحنتها إلى يوم القيامة)..!!

قد يقول بعض الناس ماذا نقول في قصة خالد بن الوليد لما شرب السم، أو ما جاء عن عمر أنه أكل مع مجذوم..

قصــة خــالد مشــهورة في كتب التاريخ، أنهم حاصروا حصناً فقال

الـــروم لا نسلّم (نستسلم) حتى تشرب السمّ..، وحكم شربه حرام لا يجوز (مـــن تحسّى سمّاً فقتل نفسه فسمّ تحسّاه في بطنه في نار جهنم خالداً مخلداً فـــيها أبـــداً)، خالد في وقت حرج، استسلام هؤلاء يعني حماية المسلمين وإبعـــاد الأذى عـــنهم في الحرب والجراحات فيه مصلحة عظيمة، والروم هـــؤلاء كـــأنهم يـــريدون شيء من الكرامات يستسلمون لهؤلاء – تحدّي- فأخذه خالد ثقة بالله وتوكلاً على الله وشرب ولم يضره وسلم الروم..

هـــذه حالـــة خاصة ونادرة لم يكن أخذه لها بسبب الانتحار وإنما وجـــد خـــالد مصلحة عظيمة للمسلمين ووجد في نفسه توكل على الله كبـــير وهذا شيء يشعر به ربما بعض أولياء الله في بعض الحالات..، لم يضره من التوكل..، ولكن هذا لا يقع مع أي أحد..

وكذلك تحمل قصة عمر ﷺ لمن أراد الإثبات والبرهنة لمن يعتقد أن العـــدوى لابد أن تصيب فوجد في نفسه شدة وصحة توكل وقوة في القلـــب لإثبات للناس أنه لا عدوى، ولكن هذه حالات خاصة تكون مع أولياء الله وليست القضية على إطلاقها فالأصل باقٍ على ماهو عليه..

ثالثاً : الرجاء :

المقـــام دليل على الثبات والدوام لأنه لو كان شيئاً سريع الزوال لســـمي حـــالاً ولـــيس مقاماً، فينبغي لأعمال القلوب أن تكون مقامات وليست أموراً عارضة..

(مـــثال علـــى ذلك: صفرة ثابتة ← الذهب، صفرة المرض ← بينهما، صفرة الخوف والوجل ← سريعة الزوال)..

الرجاء: هو ارتياح لانتظار ما هو محبوب عند الإنسان، لكن هذا يكـــون لشـــيء مـــتوقع له سبب فإن لم يوجد له سبب صار تمنياً لأن الإنسان إذا انتظر شيء بدون سبب لا يسمّى راجياً بل متمنياً..!

وأمـــا مالـــه ســـبب وينـــتظر الإنســـان محبوباً بسبب عمله هذا هو الرجاء. ولابد من التفريق بين الرجاء والتمنّي..

الرجاء	التمني
حالـــه كحال رجل شق الأرض وســـواها وبذرهـــا وحـــرثها وتعهدهـــا بالســـقيا والماء وأبعد عنها الآفات وقعد ينتظر حصول الثمرة ونماء الزرع فهذا صاحب رجـــاء. فهـــو يرجو رحمة الله وثوابه بعد بذل الأسباب..	ليس رجاء شرعياً.. يكون مع الكســـل..، فلا يسلك صاحبه طـــريق الجـــد والاجتهاد ولا يبذل جهداً ولا توكلاً فهذا حال من يتمنى أن ينبت زرع بدون أن يبذل، وصاحبه مفلس..

﴿ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ ﴾(النساء:١٢٣) لـــيس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل الحسن.

والرجاء ضروري للسائر إلى الله والعابد لو فارقه لحظة تلف أو كـــاد يـــتلف لأن المسلم يدور ما بين ذنب يرجو غفرانه، وعيب يرجو إصلاحه، وعمل صالح يرجو قبوله، واستقامة يرجو حصولها وثباتها، وقـــرب مـــن الله يـــرجو الوصـــول إليه، لذلك كان الرجاء من أقوى

الأسباب التي تعين المرء على السير إلى ربه والثبات على الدين، وهذا زمن الفتن والشهوات والمحن والشبهات.

أسباب وعوامل الثبات :

الرجاء الذي هو ضد اليأس، واليأس هو تذكر فوات رحمة الله وقطع القلب عن التماسها وهو معصية ﴿ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾(يوسف:٨٧) قالها يعقوب عليه السلام لأبنائه ..

درجات الوصول إلى تحقيق الرجاء :

١- ذكر سوابق فضل الله على العبد، أن الله له علينا فضائل سابقة

٢- ذكر وعد الله من جزيل ثوابه وعظيم كرمه وجوده بدون سؤال من العبد استحقاق فإن الله يعطي بدون أن يكون العبد مستحقاً إذا استقام الإنسان.

٣- أن تذكر نعم الله عليك في أمر دينك وبدنك ودنياك في الحال(الآن) وأن يمدك بالألطاف والنعم من غير استحقاق ولا سؤال.

٤- ذكر سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه وأنه الرحمن الرحيم الغني الكريم الرؤوف بعباده المؤمنين لذلك تحقيق الرجاء يقوم على معرفة أسماء الله وصفاته.

وقد علم أرباب القلوب أن الدنيا مزرعة الآخرة والقلب كالأرض لابد لها من بذر وكذلك لابد للقلب من طاعات والأرض لابد لها من تعاهد وسقي بالماء وحفر أنهار وسوق الماء إليها وكذلك القلب لابد لَه

مـــن تعـــاهد وأن يسقى بماء الطاعة والعبادة وكذلك الأرض تحتاج حتى تتبـــت إلـــى صـــيانتها عن الأشياء الضارة، وترى المزارع ينتقي الدغل فينتزعه من أرض حتى لا يؤذي زرعه والمؤمن ينقي قلبه من أي شبهة وشهوة حتى لا تفسد عليه زروع الطاعة التي سقاها بماء العبودية..

وقـــلّ أن يـــنفع إيمان مع خبث القلب كما لا ينمو البذر في الأرض السبخة إذاً ينبغي أن يقاس رجاء العبد برجاء صاحب الزرع فكل من طلب أرضـــاً طيـــبة وألقـــى بذراً جيداً وسقى وتعاهدها بالرعاية ثم جلس ينتظر فضل الله ..، انتظار هذا يسمى رجاءً، أما إن بذر في أرض سبخة مرتفعة لا يصـــلها المـــاء، هـــذا غبي أحمق، أما إن بذر في أرض طيبة ولكن لا يصلها الماء وقال أنتظر المطر.، انتظار هذا تمنّي وليس رجاء..!

الـــرجاء يصدق على انتظار محبوب تمهّدت أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ولم يبق إلا ما ليس في اختيار وإرادة العبد..

لذلك فالإنسان يبذل من الطاعات والعبادات وينتظر فضل الله أن يثبـــته وأن لا يزلـــه ولا يزيغه حتى الممات ولا يضله حتى يلقاه وهو راضٍ عنه.

الراجـــي إنســـان عـــنده مواظبة على الطاعات قائم بمقتضيات الإيمان، يرجو من الله أن لا يزيغه وأن يقبل عمله ولا يردّ عليه، وأن يضـــاعف أجره ويثيبه، فهوباذل للأسباب التي يستطيعها يرجو رحمة ربـــه، ولذلـــك يكون الذي يقطع البذور ولا يتعاهدها بماء الطاعات أو يـــترك القلب مشحوناً برذائل الأخلاق منهمكاً في لذات الدنيا ثم يطلب

المغفرة يكون حمقاً وغروراً ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا ﴾(الأعراف:١٦٩)، والكافر صاحب الجنة قال ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرًا مِّنۡهَا مُنقَلَبًا ﴾ (الكهف:٣٦)، فهو صاحب أماني ولا أعمال صالحة عنده ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾(الكهف:٣٦)..!

الرجاء دواء يحتاج له رجلان:

١- رجل غلب عليه اليأس حتى ترك العبادة وجزم أنه ليس هناك فائدة..

٢- رجل غلب عليه الخوف حتى أضرّ بنفسه وأهله، فتعدّى خوفه الحد الشرعي المطلوب فلابدّ أن يعدّل ويمدّ بشيء يحدث موازنة وهو الرجاء الذي هو حالة طبيعية عند المؤمن.

فبعض الناس الكلام معه في الرجاء دواء، أما العاصي المغرور المتمني على الله مع الإعراض عن العبادة لا ينفع معه أبداً دواء الرجاء، ولو استعملت معه الرجاء لزدته ضلالاً..، لا ينفع له إلا دواء الخوف، فيوعظ بسياط الخوف ويقرّع المنايا، هذا المتمني المتساهل المفرط، فلا يصلح معه أن تحدثه عن الرجاء، وهذا أمر مهم ينبغي أن يتنبه له الوُعّاظ..

قال بعض العلماء: (يجب أن يكون واعظ الناس متلطفاً معهم ناظراً إلى مواضع العلل معالجاً كل علة بما يليق بها وهذا الزمان لا ينبغي أن يستخدم فيه مع الخلق أسباب الرجاء بل المبالغة في التخويف وإنما يذكر الواعظ فضيلة وأسباب الرجاء إذا كان المقصود استمالة

القلــوب إلــيه لإصلاح المرضى)، التخويف ولكن بحيث لا تصل إلى تيئيسهم من رحمة الله..

قال علي ﷺ: ((إنما العالم الذي لا يقنط الناس من رحمة الله ولا يأمّنهم مكر الله))..

لابــد أن يكون هناك توازن وحسب حال الناس، فإذا كانوا ميّالين إلى التفريط والمعاصي والتساهل غلّب التهويف وإذا كان عندهم خوف زائد ويأس من رحمة الله غلّب الرجاء.

ثمرات الرجاء:

١- يورث طريق المجاهدة بالأعمال.

٢- يورث المواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الأحوال.

٣- يشــعر العــبد بالــتلذذ والمداومة على الإقبال على الله والتنعّم بمناجاته والتلطف في سؤاله والإلحاح عليه.

٤- أن تظهــر العبودية من قبل العبد والفاقة والحاجة للرب وأنه لا يستغني عن فضله وإحسانه طرفة عين.

٥- أن الله يحــب من عباده أن يسألوه ويرجوه ويلحّوا عليه لأنه جواد كريم أجود من سُئِل وأوسع من أعطي وأحب ما إلى الجواد الكريم أن يسأله الناس ليعطيهم ومن لا يسأل الله يغضب عليه والسائل عادة يكون راجٍ مطالب أن يُعطى فمن لم يرجو الله يغضب عليه، فمن ثمرات الرجاء التخلّص من غضب الرب.

٦- الرجاء حادٍ يحدو بالعبد في سيره إلى الله فيطيب المسير ويحث على السير ويبعثه على الملازمة، فلولا الرجاء بـــ (المضاعفة- رحمـــة الله- الأجور والثواب المضاعف- الجنة والنعيم) ما سار أحد، والقلب يحركه الحب ويزعجه الخوف ويحدوه الرجاء.

٧- يطـــرح على عتبة محبة الله ﷻ ويلقيه في دهليزها فكلما اشـــتد رجاؤه وحصل له ما يرجوه؛ ازداد حباً لربه وشكراً له ورضا، وهذا من مقتضيات وأركان العبودية.

٨- الرجاء يبعث العبد على مقام الشكر لأنه يحفزه للوصول إلى مقام الشكر للنعم وهو خلاصة العبودية.

٩- الرجاء يوجب المزيد من التعرف على أسماء الله وصفاته .

الخوف مستلزم للرجاء والرجاء مستلزم للخوف عند المؤمن، لأن كـــل خـــائف راجي وكل راجي خائف، ولهذا حسن وقوع الرجاء في مواضــــع يحسن فيه وقوع الخوف ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ ﴾ (نـوح:١٣) ..قال المفسرين: مالكم لا تخافون لله عظمة، فكل راجٍ خائف مـــن فوات مرجوّه، هذا يفسّر لنا كيف أن الرجاء مرتبط بالخوف وأن الراجي خائف أن يفوت مطلوبه ورحمة الله وجنته.

انظـــر إلى التداخل العجيب بين مقامات الإيمان في قلب المؤمن، والخوف بلا رجاء يأس وقنوط..!!!

قال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ

(١)

ٱللَّهِ ﴾ (الجاثية:١٤) أي لا يخافون وقائع الله بهم كما وقعت في الأمم الذين من قبلهم من التدمير والإهلاك.

١٠- ثـم إن العـبد إذا تعلق قلبه برجاء ربه فأعطاه ما رجاه فحصل المطلوب يحصل مزيد من التشجّع وسؤال المزيد والإقبال على الله وهكذا لا يزال العبد في ازدياد في الإيمان والقرب من الرحمن.

١١- علــى قدر رجاء العباد وخوفهم يكون فرحهم يوم القيامة بحصول المرجو الأعظم وهو نيل رضا الرب والجنة ورؤية الله فيها .

وكذلــك فإن الله يريد من العبد أن يكمل نفسه بمراتب العبودية من الذل والانكسار لله والتوكل عليه والاستعانة به والخوف منه والصبر على أقداره والشكر له وعلى إنعامه ولذلك يقدر الذنب على العبد لتكمل مراتب العبودية عند العبد فيستغفر العبد، فلولا الذنب ما حصل انكسار ولا توبة، يبتلــيهم بالذنوب ليعالج ما في قلوبهم بالانكسار وطلب التوبة فينكسر بين يدي الله فيتحقق معنى مهم جداً جداً من معاني العبودية..!!

كيف تتحقق العبودية إذا لم يكن هناك انكسار وذل وخضوع..؟!، أحــياناً لا يصدر الانكسار والذل هذا إلا بذنب يتوب منه العبد ويعرف تقصيره والبلية التي وقع فيها وحجم المعصية.

الرجاء فيه انتظار وترقّب وتوقع لفضل الله ﷻ فيتعلق القلب أكثر بخالقه.

أنواع الرجاء:

الرجاء ثلاث أنواع، نوعان محمودان ونوع غرور مذموم..

١- رجــاء رجــل عمــل بطاعة الله على نور من الله فماذا يرجو؟ ثواب الله..

٢- رجل أذنب ذنوباً ثم تاب منها فماذا يرجو؟ يرجو مغفرة الله ومحو الذنوب والتجاوز عنها وسترها..

٣- رجــل متمادي في التفريط والمعاصي والسيئات ويرجو رحمــة ربــه والمغفرة بلا عمل!! فهذا غرور وتمني ورجاء كاذب لا يعتبر رجاء محموداً أبداً..

والمؤمــن عندما يسير إلى الله له نظران: نظر إلى نفسه وعيوبه وآفات عمله من العجب والرياء والاغترار بالعمل وهذا يفتح عليه باب الخوف من الله، وينقله بعد ذلك إلى سعة كرم الله وفضله وبره ومغفرة ذنوبــه ويفــتح له باب الرجاء،وهذا هو النظر الثاني ولهذا قيل في حد الــرجاء وتعريفه هو النظر إلى سعة رحمة الله ﷻ ولابد من الموازنة بيــن الخــوف والــرجاء كما قال العلماء: ((العبد في سيره إلى الله كالطائــر يطير بجناحين، جناحي الطائر إذا استويا استوى الطائر وتم طــيرانه وإذا نقــص أحدهما اختلّ نوعاً ما وإذا ذهب الجناحان صار الطائر في حدّ الموت))، ما هما الجناحان في سير العبد إلى ربه؟ هما الخوف والرجاء.

درجات الرجاء:

الرجاء درجات، درجة أرفع من درجة، ومراتب بعضها فوق بعض :

١- **الدرجة الأولى:**

رجــاء يبعــث العــامل على الاجتهاد بالعبادة بل يولد عنده اللذة بالعــبادة ولــو كانـــت شاقة أو صعبة فيتلذذ بها ويترك المناهي، ومن عرف القدر المطلوب هان عليه ما يبذل فيه ومن رجا الأرباح العظيمة فـــي سفره هانت عليه مشقة السفر، كذلك المحب الصادق الذي يسعى فـــي مرضاة الرب تهون عليه مشقة صلاة الفجر والوضوء في البرد ومشـــقة الجهـــاد ومشـــقة الحـــج والعمرة وطلب العلم وتكرار الحفظ وانتصاب الجسم في الليل وجوع الصيام..، بل تنقلب إلى لذّة..!!

فالدرجـــات العملـــية في التعبد لله: مشقة ومن ثم لذة، يقول أحد العلماء: " كابدت قيام الليل ٢٠ سنة ثم تنعمت به ٢٠ سنة"، فالمرء لا يصـــل أحـــياناً إلى لذة العبادة إلا بعد أن يذوق مشقتها، فإذا قوي تعلق الرجاء بالعوض سمحت الطباع بترك العادات وترك الراحة، فالإنسان مفطور أن لا يترك محبوباً إلا لمحبوب أعظم منه .

٢- **الدرجة الثانية:**

المجاهدون لأنفسهم بترك مألوفاتها واستبدال مألوفات هي خير منها فرجاؤهم أن يبلغوا مقصودهم بالهمة وهذا يلزم له العلم وهو الوقوع على الأحكـــام الدينية لأن رجاؤهم متعلق بحصول ذلك لهم ولابد من علم وبذل

الجهد بالمعرفة والتعلّم وأخذ النفس بالوقوف عند الحدود طلباً وقصداً..

٣- الدرجة الثالثة :

رجـــاء أربـــاب القلوب لقاء الخالق والاشتياق إليه ﷻ وهذا الذي يمكـــن أن يـــزهّد الإنسان في الدنيا تماماً (أعلى الأنواع)، ((فمن كان يـــرجو لقـــاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً))، ((مـــن كـــان يـــرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت))، هذا الرجاء (اللقيا) محـــض الإيمان وزبدته وإليه تشخص أبصار العابدين المجتهدين وهو الذي يسليهم ولذلك ضرب الله لهم أجل تسكن إليه نفوسهم..

عمـــير بن حمام الأنصاري لما ذكر لهم الرسول صلى الله عليه وسلم : (قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض) اشتاقت نفسه إلى لقـــيا الله فقـــال: (لئن عشت حتى آكل هذه التميرات إنها لحياة طويلة) فقاتل حتى قُتِل ولقي الله شهيداً ..

فلمـــا علم الله شوق هذه الطائفة من عباده وهم الندرة والقلة وأن نفوســـهم تضـــطرب حـــتى تلقها؛ضرب لهم موعداً تسكن إليه نفوسهم وتعمل حتى تقدم إلى الله.

سئل أحد العارفين عن قول علي ﷺ: (لا يرجون عبدٌ إلا ربه ولا يخافـــنّ إلا ذنبه) فقال: الحمد لله،هذا الكلام يؤثر عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وهو من أحسن الكلام وأبلغه وأتمه فإن الرجاء يكون للخير والخوف يكون من الشر والعبد إنما يصيبه الشر بذنوبه ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾(الشورى:٣٠) لذلك قال

علـــي ﷺ: (لا يخافن عبد إلا ذنبه) وإن سلط عليه مخلوق فما سلط عليه إلا بذنوبه ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ (الأنعام:١٢٩) فليخف الله وليتب من ذنوبه التي ناله بها ما ناله كما في الأثر: (يقـــول الله: أنـــا الله مـــالك الملـــوك قلوب الملوك ونواصيهم بيدي من أطاعنـــي جعلتهم عليه رحمة ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة فلا تشتغلوا بســـبّ الملـــوك وأطيعونـــي أعطّـــف قلوبهم عليكم)، فإن الراجي يطلب حصـــول الخير ودفع الشر ولا يأتي بالحسنات إلا الله ولا يذهب السيئات إلا الله ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ﴾(يونـــس:١٠٧)، ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾(فاطر:٢)

والـــرجاء مقرون بالتوكل، فإن المتوكل يطلب ما رجاه من حصول المـــنفعة ودفـــع المضـــرة، والـــتوكل لا يجوز إلا على الله ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾(إبراهـيم:١٢) ومن توكل على غير الله ورجاه خـــذل من جهته وحرم إن لم يكن في الدنيا؛ في الآخرة حين يقال: اذهبوا إلـــى الذين كنتم تراؤونهم فاطلبوا منهم الأجر..!، ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾(العنكبوت:٤١)، ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ۝ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾(مـريم:٨٠ـ٨١)، فمن عمل لغير الله رجاء أن ينتفع بما عمل لـــه كانت صفقته خاسرة، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾(النور:٣٩) .

رابعاً : الخوف

قد ورد الخوف في القرآن على وجوه منها..

١- القتل والهزيمة: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ ﴾ (النساء:٨٣)، ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ ﴾(البقرة:١٥٥) .

٢- الحرب والقتال: ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾(الأحزاب:١٩) إذا انجلت الحرب،﴿ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾(الأحزاب:١٩)

٣- العلم والدراية: ﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا ﴾ (البقرة:١٨٢) أي علم، ﴿ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ﴾(البقرة:٢٢٩) أي يعلما ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ ﴾(النساء:٣) أي علمتم.

٤- النّقْص: ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ ﴾(النحل:٤٧) .

٥- الرعب والخشية من العذاب والعقوبة : ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا ﴾(السجدة:١٦) .

قال ابن قدامة: ((اعلم بأن الخوف سوط الله يسوق الله به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل لينالوا بهما رتبة القرب من الله ﷻ، والخوف سراج القلوب به يبصر ما فيه من الخير والشر))..

وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله ﷻ فإنك إذا خفته هربت إليه، فالخائف هارب من ربه إلى ربه فأين المفر؟!، وما فارق الخوف قلباً إلا خربه فإذا سكن الخوف القلوب أحرق مواضع الشهوات فيها وطرد الدنيا عنها .

فكـــم أطلـــق الخوف من سجين في لذته كانت قد استحكمت عليه ســـكرته وكم فك من أسير للهوى ضاعت فيه همته وكم أيقظ من غافل التحف بلحاف شهوته وكم عاق لوالديه رده الخوف عن معصيته، وكم من فاجر في لهوه قد أيقظه الخوف من رقدته، وكم من عابدٍ لله قد بكى مـــن خشيته وكم من منيب إلى الله قطع الخوف مهجته وكم من مسافر إلى الله رافقه الخوف في رحلته وكم من محبٍّ لله ارتوت الأرض من دمعته، فلله ما أعظم الخوف لمن عرف عظيم منزلته..

والخـــوف ليس مقصوداً لذاته، ليس المقصود أن نخاف لأجل أن نخاف بل نخاف ليكون الخوف وسيلة تصلح أحوالنا.

لـــو كان الخوف مقصوداً لذاته لما ذهب عن أهل الجنة!!، لكن لما كان دخول أهل الجنة الجنّة مهيأً القضية وما هو مطلوب منهم وليس فيها عمـــل ولا اجتهاد في العبادات ومقاومة للهوى والشهوات كان الخوف من أهلها ذاهب ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾(يونس:٦٢) .

ومن خاف اليوم أمِنَ غداً.. ومن أمِن اليوم خاف غداً.

والخـــوف يـــتعلق بالأفعال، والمحبة تتعلق بالذات والصفات، ولهذا تتضاعف محبة المؤمنين لربهم إذا دخلوا دار النعيم ولا يلحقهم فيها خوف.

قـــال ابـــن رجب : ((والله خلق الخلق ليعرفوه ويعبدوه ويخشوه ونصـــب الأدلـــة الدالـــة على عظمته وكبريائه ليهابوه ويخافوه خوف الإجـــلال ووصـــف لهم شدة عذابه ودار عقابه التي أعدها لمن عصاه ليتقوه بصالح الأعمال)).

لذلك كرر الله ﷻ ذكر النار وما أعده الله فيها لأعدائه من العذاب والـنكال ومـا احـتوت عليه من الزقوم والضريع والحميم والسلاسل والأغـلال إلى غير ذلك مما فيه من العظائم والأهوال ودعا عباده بذلك إلـى خشـيته وتقواه وامتثال والمسارعة إلى ما يأمر به ويحبه ويرضاه واجتـناب مـا ينهى عنه ويكرهه ويأباه، فمن تأمل الكتاب الكريم وأدار فكـره فـيه وجـد ذلك العجب العجاب وكذلك السنة الصحيحة المفسّرة للقـرآن وكذلـك سـير السلف الصالح أهل العلم والإيمان من الصحابة والتابعيـن لهم بإحسان، من تأملها علم أحوال القوم وما كانوا عليه من الخـوف والخشـية والإخبات وأن ذلك هوالذي رقاهم إلى تلك الأحوال الشـريفة والمقامات الساميات من شدة الاجتهاد في الطاعة والكف عن المحرمات ودقائق الأعمال المكروهات فضلاً عن المحرمات..

الخوف منازل ودرجات :

القـدر الواجـب مـن الخوف ما حمل على أداء الفرائض واجتناب المحـارم فـإن زاد على ذلك، بحيث صار باعثاً للنفوس على التشمير في نوافـل الطاعات والكف عن دقائق الكروهات (يعني فعل المستحبات وترك المكـروه والشـبهة)، كان ذلك خوفاً محموداً فإن تزايد الخوف بحيث أدّى إلى مرض أو موت أوهمٍّ لازم أو قعود عن العمل بحيث يقطع السعي عن اكتساب الفضائل المطلوبة المحبوبة إلى الله ﷻ لم يكن خوفاً محموداً.

بعـض الناس من شدة خوفهم من العذاب والنار يصابون باليأس والاحـباط والقعـود عـن العمـل ويقولون لا فائدة!!..، ليس هذا هو المطلوب ...، وهذه الزيادة مذمومة..

الخـوف المطلـوب: الـذي يحمـل على فعل المستحبات وفعل الواجـبات قـبلها وعلى ترك الشبهات والمكروهات وترك المحرمات قـبلها وهناك خوف ضعيف أقل من هذا، لا يؤدي إلى ترك المحرمات كلها أو فعل الواجبات كلها فهو خوف ناقص..

ذكر البخاري في قوله : (باب الخوف من الله ﷻ).

قـال ابن حجر: هو من المقامات العليّة وهو من لوازم الإيمان، قـال الله تعالى : ﴿ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾(آل عمـران:١٧٥) ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي ﴾(الـبقرة:١٥٠) ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ﴾ (فاطـر:٢٨)، وتقدم حديث ((**أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية**))، وكلما كـان العبد أقرب إلى ربه كان أشد له خشية ممن دونه وقد وصف الله الملائكة بقوله : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾(النحل:٥٠)، والأنبياء بقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ (الأحـزاب:٣٩)، وإنما كان خوف المقربين أشد لأنهم يطالبون بما لا يطالب بـه غـيرهم فـيراعون تلك المنزلة ولأن الواجب لله منه الشكر على المنزلة فيضاعف بالنسبة لعلو تلك المنزلة..

فالعـبد إن كان مستقيماً فمن أي شيء يخاف؟!!، فخوفه من سوء العاقبة لقوله تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ (الأنفال:٢٤)، وكذلك يخاف من نقصان الدرجة..

وإن كان مائلاً منحرفاً وعاصياً فخوفه من سوء فعله وينفعه ذلك مع الندم والإقلاع..

متى ينفع الخوف ؟

ينفع مع الندم والإقلاع، فإن الخوف ينشأ من معرفة قبح الجناية والتصديق بالوعيد أو أن يحرم التوبة أولا يكون ممن شاء الله أن لا يغفر له.

ما حكم الخوف من الله؟

الخوف من الله واجب، وهو من أجل منازل الطريق وأنفعها للقلب وهو فرض على كل أحد كم قال ابن القيم، إذاً يجب الخوف من الله ومن لا يخف فهو آثم.

قال ابن الوزير: ((أنا الأمان فلا سبيل إليه، وهو شعار الصالحين)).

من فوائد الخوف:

١- أن الله جعله شرطاً لحصول الإيمان ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾(آل عمران:١٧٥) . قال ابن جرير: لا تخافوا أيها المؤمنين المشركين ولا يعظمن عليكم أمرهم ولا ترهبوا جمعهم مع طاعتكم إياي فأطعتموني واتبعتم أمري وإني متكلف لكم بالنصر والظفر ولكن خافوني واتقوني أن تعصوني أن تخالفوا أمري فتهلكوا إن كنتم مؤمنين فالله ﷻ أولى أن يخاف منه من الكفار والمشركين.

٢- ابتلى الله الصحابة ﷺ بابتلاء عظيم ليظهر الذي لا يخاف من الذي يخاف في الصيد ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(المائدة:٩٤) . ليختبرنكم الله

أيهــا المؤمنون ببعض الصيد في حال الإحرام كي يعلم أهل طاعة الله والإيمــان به المنتهون إلى حدوده وأمره ونهيه، يختبر ليظهر من الذي يخــاف الله والــذي لا يخافه ﴿ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴾، يعني يبتليهم بالصيد يغشاهم في رحالهم، يتمكنون من أخذه بالأيدي والرماح ســراً وجهراً ومحرم عليهم الصيد في الإحرام لتظهر طاعة من يطيع مــنهم فــي سره وجهره ومن لا يطيع، أما الصحابة فنجحوا في ذلك، وأمــا اليهود ففشلوا عندما حرم الله عليهم الصيد يوم السبت فاستحلوا محــارم الله بــأدنى الحيل، فنصبوا الشباك يوم الجمعة وسحبوها يوم الحد، فلم يخافوا الله فهلكوا. فالمــرء قــد يتعرض أحياناً لمعصية أو شهوة والوقوع فيها يسير جداً وقد تكون الفضيحة مأمونة ﴿ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴾، وكما في قصة يوسف وامرأة العزيز، هنا يكون الاختبار والبلاء.

٣- الخوف من الله عبادة قامت في قلب النبي ﷺ فارتفعت نفسه عن المحرمات والمحظورات لأنه يخاف رب الأرض والسموات ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾(الأنعــام:١٥-١٦) . فهـــو يخشى عذاب الله ولا يتعد حدوده.

٤- الخوف من الله من صفات أولي الألباب ﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ ﴾(الــرعد:١٩-٢١)

الخوف من الله يدل على أن صاحبه صاحب عقل، من أولي الألباب أي راجح العقل يعرف الشيء الذي يخوّف حقاً.

ثمرات الخوف من الله :

أ- في الدنيا ..

١- من أسباب التمكين في الأرض، وزيادة الإيمان والطمأنينة لأنك إذا حصل لك الموعود وثقت أكثر، قال ﷻ : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾(إبراهيم:١٣-١٤) إذاً الخوف من الله يؤدي إلى التمكين في الأرض والانتصار على الأعداء وأن يهلك الله عدوهم ويخزيهم ويورث المؤمنين أرضهم وديارهم.

٢- يبعث على العمل الصالح والإخلاص فيه وعدم طلب المقابل في الدنيا فلا ينقص الأجر في الآخرة ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾(الإنسان:٩-١٠) ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ ﴾(النور:٣٦-٣٧)، أي تضطرب وتتقلب وهذا هو الذي دفعهم للعمل، يريدون النجاة ويحذرون الهلاك ويخافون أن يأتوا وكتبهم بشمالهم.

ب – في الآخرة..:

١- يجعل الإنسان في ظل العرش يوم القيامة، ((**ورجل طلبته امــرأة ذات منصــب وجمــال فقال إني أخاف الله**))، ظاهر الحديث أنه يقولها بلسانه ليزجر المرأة عن فعلها وليذكر نفسه ويصر على موقفه ولا يــتراجع بعــد إعلان المبادئ، ((**ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه**))، الخشية الموجبة لدمع العين تؤدي إلى أن النار لا تمس العين يوم القيامة.

٢- مــن أسباب المغفرة، شاهد ذلك الحديث: رجل كان فيمن قبلــنا عنده جهل عظيم ورزقه الله مالاً فقال لبنيه لما حضره الموت: أي أب كنــت لكم؟قــالوا: خــير أب، قال: فإني لم أعمل خيراً قط فإذا مت فأحرقونــي ثم اسحقوني ثم ذروني في يوم عاصف، ففعلوا وما أسهل أن يعــيده الله كمــا كــان، قال: ما حملك؟ قال: مخافتك، فتلقاه برحمته..!!، فعذره الله بجهله وشفع له خوفه من ربه وإلا فالذي ينكر البعث كافر.

٣- يــؤدي إلى الجنة لأن النبي ﷺ: ((**من خاف أدلج ومن أدلــج بلغ المنزل ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة**)) أي الــذي يخاف من إغارة العدو وقت السحر يسير من أول الليل (أدلج) فــبلغ المــنزل والمأمن والمطلب، وهذا مثل ضربه الرسول صلى الله علــيه وســلم لسالك الآخرة فإن الشيطان على طريقه والنفس الأمارة بالســوء والأماني الكاذبة وأعوان إبليس، فإن تيقظ في مسيره وأخلص النــية فــي عمله أمن من الشيطان وكيده ومن قطع الطريق عليه، هذه سلعة الله التي من دخلها كان من الآمنين.

٤- يـــرفع الخـــوف عـــن الخائف يوم القيامة: ((وعزتي وجلالـــي، وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين وأمنين، إذا خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة، وإذا أمنني في الدنيا أخفته في الآخرة)).

٥- ســـبب للنجاة من كل سوء، ((ثلاث منجيات: خشية الله تعـــالى في السر والعلانية)) فهذه الخشية هي التي تحفظ العبد وتنجيه من كل سوء لأنه قال ووعد الله لا يخلف وهذا رسوله (منجيات) وعمّم تشمل الدنيا والآخرة.

٦- يصبح الإنسان ممدوحاً مثني عليه ويكفيه فخراً أن يدخل فـــي أصـــحاب الأســـماء والألقـــاب الشريفة ((المسلمين والمسلمات والمؤمنيـــن والمؤمـــنات والصـــائمين والصائمات والقانتين والقانتات والذاكريـــن والذاكرات والحافظين فروجهم والحافظات)) ألفاظ شريفة كانوا يسعون لحيازتها ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾(السجدة:١٧) .

<u>الأسباب الجالبة للخوف :</u>

الخـــوف ليس مقصوداً لذاته بل لما بعده من فعل الواجبات وعدم تـــركها والبعد عن المحرمات وعدم ارتكابها وإذا زاد يمكن أن يكون فعل مستحبات وترك مشتبهات وإذا زاد أكثر يصبح مذموماً وإذا نقص عـــن هـــذا يكـــون أيضـــاً ناقصاً لا يؤدي إلى النتيجة المطلوبة، فمن الأسباب الجالبة للخوف:

١- سابق الذّنب الذي وقع فيه.

٢- حذر التقصير في الواجبات.

٣- الخوف من المصير أن يكون على ما يكره.

٤- إجلال الله وتعظيمه ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾(النحل:٥٠) والملائكــة خوفهم من الله شديد جداً ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ ﴾(سبأ:٢٣) فالله إذا تكلم بالكلمة في السماء من أوامره ضربت الملائكة بأجنحتها خضوعاً لقوله، فأصدرت صوتاً عظــيماً كجرّ السلسلة العظيمة على الصخرة ثم يغشاهم من الفزع ما يغشـــاهم ورجعوا إلى حالة يستطيعون فيها الكلام قالوا ماذا قال ربكم تناقلــت الأوامر قالوا الحق، فإذاً إجلال الله يقتضي الخوف والهيبة منه جل وعلا وهذه أهمية معرفة أسماء الله وصفاته.

٥- الخوف من الله يتعلق بقضيتين..

أ – الخوف من عذابه..

ب – الخوف من الله..

الــناس العامـــة ينزعون إلى الخوف من النار أكثر، وأهل الفقه والعلـــم خوفهم من الله قبل خوفهم من ناره لأن العامة قد يكون فهمهم وعلمهم قليل وبساطة فأحياناً لا يتذكر من كل القضية إلا النار، وقد لا يســتوعب أن الخوف من الله قبل الخوف من ناره أول وأكبر وأعظم ولذلــك قـــال ابن قدامة رحمه الله: ((في مقامي الخوف المقام الأول

الخـــوف من عذاب الله وهذا خوف عامة الناس وهذا النوع من الخوف يحصـــل بالإيمـــان بالجـــنة والـــنار وكونهمـــا جزاءين على الطاعة والمعصـــية، المقام الثاني الخوف من الله نفسه ﷻ وهو خوف العلماء والعارفين لأنه يكفيهم فقط ثلاث كلمات ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾(آل عمران:٢٨)، ولذلك قال النبي ﷺ: ((**أنا أعرفهم بالله وأشدهم له خشية**)) وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾(فاطر:٢٨)لأنه لما كملت معرفتهم بربهم وأسمائه وصفاته أثرت الخوف ففاض الأثر على القلب ثم ظهر على الجوارح بهذه الأعمال.

تـــتأمل الـــنجاة لمن، وتقارن نفسك بصفاتهم ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾(طـــه:٨٢) . وكمـــا في سورة العصر حيـــث أقسم الله أن الناس في خسران واستثنى ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾(العصـــر:٣) . وكما في قوله تعـــالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ ﴾(الســـجدة:١٣) . هذه الآية تورث الخوف حيث أقسم الله أنه ليملأ جهنم فينخلع القلب والله تعالى يقول: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ﴾(مـــريم:٧١) وقيل لفلان لم تبكـــي؟ قال لأني أعلم يقيناً أنني سآتي على جهنم ولكن ليس لدي يقين أنني ســـأنجومنها.!، وفـــي مسألة قبول العمل أيضاً والله تعالى يقول : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾(المائدة:٢٧) .فإذا حصل الخوف حصلت أسباب النجاة.

٦- تدبر كلام الله ورسوله والنظر في سيرته، قال بعضهم : ((لأنـــه سيد الخائفين وإمام المتقين وأخشاهم لله فإذا تدبر المسلم كلام

الله وسنة نبيه شهد قلبه أموراً من صفات الله وعقوباته وانتقامه وكيف خاف الأنبياء والملائكة والصالحون، وليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعـــاده وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن وإطالة التأمل وجمع الفكر على معاني آيات الكتاب العزيز فلا تزال معانيه تنهض العبد إلى ربه بـــالوعد الجميل وتحذره وتخوفه بوعيده من العذاب الوبيل وتحثه على التضمرّ والتخفف للقاء اليوم الثقيل)).

يقول ابن الجوزي: ((والله لو أن مؤمناً عاقلاً قرأ سورة الحديد وآخـــر ســـورة الحشـــر وآية الكرسي وسورة الإخلاص بتفكر وتدبر لتصدّع قلبه من خشية الله وتحيّر من عظمة الله ربّه)).

٧- الـــتفكر في عظمة الله ﷻ، فإنه من تفكر في ذلك خاف الله لا محالـــة لأن الـــتفكر يوقعه على صفات الله جل جلاله وكبريائه ومـــن شـــهد قلـــبه عظمة الله وكبرياءه علم شأن تحذيره عندما قال: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾(آل عمـران:٢٨) أي خـــافوه واخشوه بما أبدى لكـــم من صفاته وأسمائه وعدله ﷻ، قال تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾(الزمـر:٦٧) يمجـــد الـــرب نفسه، أنا الجبار الملك، أنا المتكبر العزيـــز الكريم..، قالها ﷺ فرجف به المنبر حتى قال الصحابة ليخرنّ به، وجعل النبي ﷺ على المنبر يقول ((**يأخذ الجبار سماواته وأرضه بـــيده وقـــبض يـــده فجعل يقبضها ويبسطها ثم يقول أنا الجبار أين الجبارون أين المتكبرون**)) ويتمايل الرسول صلى الله عليه وسلم عن يمينه وشماله حتى نظر صحابي إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه

حتى قال أساقط هو برسول الله؟!! . ما السموات السبع في الكرسي إلا كلقة ملقاة بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة فإذا عرف الإنسان عظمة الرب جلب له ذلك الخوف منه.

٨- التفكر في الموت وشدته وأنه لا مفر منه ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ﴾(الجمعة:٨)، فهذا يوجب الخوف من الله ((**أكــثروا من ذكر هادم اللذات، الموت، فإنه لم يذكره أحد في ضيق من العيش إلا وسعه عليه ولا ذكره في سعة إلا ضيقها عليه**)).

١٠ – الــتفكر فــيما بعــد الموت، في القبر وأهواله، قال ﷺ : ((**كنــت قــد نهيــتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإنه يرقّ القلب وتدمع العين تذكر الآخرة ولا تقول هجرة**)).

۞ عن البراء يقول كنت مع رسول الله ﷺ في جنازة فجلس على شفير القبر فبكى بلّ الثرى وقال : يا أخواني لمثل هذا فأعدّوا...

١١- إذا قدم إلى القيامة وأهوالها وحديث البعث والنشور إلى ذبــح الموت، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ ﴾(لقمان:٣٣) . لفت النظر يقوي مراقبة العبد ربه.

١٢- إذا دخــل أهل النار النار..، ماذا يوجد فيها من الأهوال في شدة عذابها؟!!..، ((إنها لإحدى الكبر)). قال الحسن: كبرت منذرة داهية عظيمة أعظم الدواهي ما أنذرت الخلائق بشيء قط أفظع منها.

وكيف قرت لأهل العلم أعينهم

أو استلذوا لذيذ النوم أو هجعوا

والموت ينذرهم جهراً علانية

لو كان للقوم أسماع لقد سمعوا

أفي الجنان وفوز لا انقطاع له

أم الجحيم فلا تبقي ولا تدع

لينفع العلم قبل الموت عالمه

قد سأل قوم بها الرجعى فما رجعوا

١٣- تفكر العبد في ذنوبه وأنه نسيه والله تعالى أحصاها ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاه، وأن الله يمكن أن يعطيه النعم استدراجاً ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾(الكهف: ٣٦)، في قصة صاحب الجنتين حين قال ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾

موانع الخوف:

الخوف تمنعه أشياء منها المعاصي، الدنيا، الرفقة السيئة، الغفلة وتبلّد الإحساس..

الخوف القاصر نوع خطير من الخوف، وهوأن يحضر موعظة ويسمع ويتأثر ثم يمشي..

هذا خوف لا يكفي وإنما العبرة بما وقع نفع ودخل واستقر..

المطلوب الخوف المستمر..

قال أحد الصحابة: ((وعظنا رسول الله ﷺ يوماً بعد صلاة الغداة موعظــة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقال رجل إنها موعظــة مودّع ماذا تعهد إلينا؟ فأعطاهم ﷺ الوصية)).. انظر إليهم .. يريدون التطبيق..

والرســول ﷺ قال: ((**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثــيراً وخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله.. سلوني.. سلوني..))** فغطّى الصحابة وجوههم يبكون..!!

جــاء حذافــة وقد كان ينسب لغير أبيه فقال من أبي قال حذافة : فصــار إثــبات نســبه بالوحي، حتى جاء عمر فقال: رضينا بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً عائذاً بالله من سوء الفتن..

فقــال الرسول ﷺ : ((**لم أرك اليوم قط في الخير والشر، إني صورت لي الجنة والنار رأيتهما دون هذا الحائط..**)) .

قــال ﷺ : ((**أطّت السماء وحق لها أن تأطّ ما فيها موضع إلا وفيها ملك قائم أو قاعد أو ساجد**)) ..

فــالخوف إذا باشــر قلب العبد فاض أثره على الجوارح وظهر، وليس أنه كان شيئاً سريعاً وذهب..

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها

إن السفينة لا تجري على اليبس

قال ﷺ : ((**ما رأيت مثل النار نام هاربها**)).

قـــال بعضهم : ((كل عاصٍ لله فهو جاهل **وكل خائف منه فهو** عـــالم مطيع))، الخائف من الله يبادر إلى الخيرات **قبل الممات ويغتنم** الأيام والساعات..

ويتكلم عن حال السلف ابن المبارك –رحمه الله–:

إذا مـــا اللـــيل أظلـــم كـــابدوه

فيســـفر عـــنهم وهـــم ركـــوع

أطـــار الخـــوف نومهـــم فقـــاموا

وأهـــل الـــنوم فـــي الدنـــيا هجـــوع

لهـــم تحـــت الظـــلام وهـــم ســـجود

أنيـــن مـــنه تـــنفرج الضـــلوع

وخـــرسٌ بالـــنهار لطـــول صـــمت

عليهم من سكينتهم خشـــــوع

خامساً : الشكر :

الشـــكر خـــير عـــيش الســـعداء لم يترقوا إلي أعلى المنازل إلا بشـــكرهم، ولمّـــا كان الإيمان صفين، نصفٌ **شكر ونصفٌ صبر، كان** حقيقاً على من نصح نفسه وآثر نجاتها وسعادتها.

هذا الشكر له مقامات عظيمة في الدين:

١- قــرن الله ذكــره بشــكره وكلاهمــا المراد بالخلق والأمر والصبر خادم لهما ووسيلة إليهما وعوناً عليهما، فقد قرن الله الشكر بالذكر فقال: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾(البقرة:١٥٢)

٢- قرن الشكر بالإيمان، وأنه لا غرض له في عذاب الخلق إذا قالوا آمنا ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾(النساء:١٤٧) ، أي وفيتم حقه وما خلقتم من أجله وهو الشكر بالإيمان.

٣- أهل الشكر هم المخصوصين بمنته عليهم من بين عباده فقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾(الأنعام:٥٣) .

٤- قسم الناس إلى شكور وكفور فأبغض الأشياء إليه الكفر وأهــل الكفــر وأحــب الأشياء إليه الشكر وأهل الشكر ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ (الإنسان:٣) .

٥- يبتلــي عــباده ليستخرج الشكور فقال تعالى على لسان ســليمان عليه السلام: ﴿ مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾(النمل:٤٠) .

٦- وعــد الشــاكرين بالــزيادة ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾(إبراهيم:٧) .

٧- الله يرضــى عمل الشاكرين ويرضى الشكر ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾

(الزمر:٧) . فيقارن الله بين الشكر والكفر وأنهما ضدّان ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾(آل عمران:١٤٤) والشاكرون في هذه الآيات الذين ثبتوا على نعمة الإيمان ولم ينقلبوا على أعقابهم. فمن الناس من لا يصمد عند الابتلاء والمحنة فيكفر ولا يثبت، ومنهم من يظهر لربه حقيقة ما في قلبه عند المحنة والابتلاء، فيتعالى لسانه بذكر ربه وحمده فيثبت ويشكر شكراً عملياً بالقلب واللسان والجوارح.

٨- علّق الله المزيد بالشكر والمزيد من لا نهاية له، كما أن الشكر لا نهاية له، ووقف الله الكثير من الجزاء على المشيئة..

- ﴿ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ﴾(التوبة:٢٨) .

-في الإجابة ﴿ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ ﴾(الأنعام:٤١) .

-في المغفرة ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ﴾(الفتح:١٤) .

-في الرزق ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ﴾(الشورى:١٩) .

-في التوبة ﴿ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ ﴾(التوبة:١٥) .

أما الشكر فإنه أطلقه ﴿ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾(آل عمران:١٤٥)، ﴿ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾(آل عمران:١٤٤) ولم يقل ﴿ إِنْ شَاءَ ﴾ !!

٩- أخبر ﷺ أن إبليس من مقاصده أن يمنع العباد من الشكر، فتعهد إبليس بأشياء ﴿ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾(الأعراف:١٧) فإبليس يريد حرمانهم من الشكر والقعود بينهم وبينه.

١٠- وصــف الله الشاكرين بأنهم قليل من عباده ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾(سبأ:١٣)، وذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه سمع رجلاً يقول: [اللهم اجعلني من الأقلين] فقال ما هذا؟ قال: يا أمــير المؤمنين : الله تعالى يقول ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾(هود:٤٠) ويقــول ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾(ســبأ:١٣) ويقــول ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ ﴾(ص:٢٤)، قال عمر: صدقت..!!، وإذا كان الشكر من صفات الأنبياء والمؤمنين فإنه ليس كذلك عند كل الناس فإن كثيراً منهم يتمتعون بالنعم ولا يشكرونها.

١١- أثنى الله على أول رسول بعثه إلى أهل الأرض بالشكر وهو نوح عليه السلام ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ (الإسراء:٣) إشارة إلى الاقتداء به.

١٢- أخبر الله أنه يعبده من شكره وأن من لم يشكره فإنه ليس من أهل عبادته : ﴿ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾(البقرة:١٧٢).

١٣- أمر ﷻ عبده موسى أن يتلقى ما آتاه من النبوة والرسالة والتكلــيف بالشكر ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾(الأعراف:١٤٤) .

١٤- أول وصــية أوصى بها الإنسان بعدما عقل أن يشكر له ثــم لوالديــه ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾(لقمان:١٤) .

١٥- أخبر الله أن رضاه في شكره ﴿ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾(الزمر:٧)

١٦- أخبر عن خليله إبراهيم بشكر نعمته ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ ﴾(النحل:١٢٠-١٢١) . فمن صفات الأمة القدوة الذي يؤتم به بالخير يعدل مثاقيل من أهل الأرض أنه كان قانتاً لله شاكراً لأنعمه فجعل الشكر غاية خليله.

١٧- الشكر هو الغاية من الخلق ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾(النحل:٧٨) . فهذه غاية الخلق، أما غاية الأمر ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾(آل عمران:١٢٣) فكما قضى الله لهم بالنصر فليشكروا هذه النعمة .

والخلاصة أن الشكر غاية الخلق وغاية الأمر فخلق ليشكر وأمر ليشكر ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ (البقرة:١٥٢)، والشكر مراد لنفسه والصبر مراد لغيره، أنت تصبر لأجل أن يحدث ما يترتب عليه وما يؤدي إليه من الأشياء، والشكر غاية في نفسه والصبر وسيلة إلى غيره وإلى ما يحمد وليس مقصوداً لنفسه.

س: بم يكون الشكر؟

والشكر لله يكون بالقلب واللسان والجوارح.

الشكر بالقلب:

علـــم القلب وذلك بأن يعلم أن الله هو المنعم بكل النعم التي يتقلب فيها [**الناس يشكرون المعبر ولا يشكرون المصدر!!**]، وهذا مهم في تربـــية الأطفال، أن يُعرَّف من أين جاءت النعم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴾(فاطر:٣) ﴿ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ ﴾(العنكبوت:٦٧)!!

أول نعمـــة ؛ نعمـــة الخلق والإيجاد، ورصد النعم والتعرف إليها مرحلة تمهيدية للشكر، وجاءت كثير من الآيات بإحصاء النعم ليكتشف الإنسان كثرتها فيعلم أن النعم لا يمكن حصرها ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ ﴾(النحل:١٨).

ولكن ذُكِر لنا أشياء فرعية وأصلية، والفروع نردها إلى أصولها، كالصـــحة فهـــي نعمـــة أصـــلية وما يتفرع منها من النعم (الحركة- المشـــي-العمـــل - الرياضة-النوم- الأكل - الشرب - السفر)، كذلك المال والوقت والعلم كلها نعم أصلية.

وتستطيع أن تضم النعم إلى ما يحاذيها ويشابهها، أنعم علينا بوصفنا مخلوقـــات بعـــد الخلـــق والإيجاد ثم نعمة الآدمية والإنسانية وأنعم علينا

بوصفنا مسلمين من نعمة الهداية والإيمان. ونعمة التربية التي ترتقي بالفرد درجة بعد درجة وتعلم علماً بعد علم حتى يبلغ كماله، وفوق كل ذلك نعمة النبوة للذين اصطفاهم الله، والصديقين والشهداء والصالحين.

إن عرض النعم على العامة أمر مهم جداً وهو قضية في الدعوة، فالله ﷻ خص الآدمي أنه خلقه بيده ((لما خلقت بيدي)).

﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾(لقمان:٢٠) ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ (إبراهيم:٣٢–٣٤) .

وذكر في سورة النحل(سورة النعم): ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾(النحل:١٤–١٨) .

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾(النحل:٨١) .

الشكر باللسان :

لســـان المرء يعرب عما في قلبه، فإذا امتلأ القلب بشكر الله لهج اللســـان بحمـــده والثناء عليه، وتأمل ما في أذكار النبي ﷺ من الحمد والشكر لرب العالمين..

١- كـــان لمـــا يفيق من نومه يقول :[**الحمد لله الذي أحيانا بعدمـــا أماتنا وإليه النشور**]، [**الحمد لله الذي عافاني في جسدي ورد علي روحي وأذن لي بذكره**].

٢- وإذا أوى إلى فراشه لينام يقول: [**الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وآوانا فكم ممن لا كافي له وملا مؤوي**].

٣- ومـــن أذكـــار الصباح والمساء[**اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد والشكر**] من قالها حين يصبح فقد أدى شكر ليله.

٤- ســـيد الاســـتغفار[**أبـــوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي**] اعتراف بالنعمة واعتراف بالتقصير في شكرها لأنه يذنب.

٥- يفتتح الأدعية بحمد الله والثناء عليه بما هو أهله.

٦- في كل خطبة أو نكاح أو أمر ذي بال يحمد الله.

٧- دعاء الاستفتاح – سورة الفاتحة – الرفع من الركوع – أذكـــار مـــا بعد السلام – ربنا ولك الحمد – أدعية التهجد – اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن – الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلاً.

٨- إذا أكل أو شرب أو سئل عن حال أو سافر أو عطس.

٩- في أي ساعة يحمد ربه من ليل ونهار، له في كل تحميدة صدقة.

وقعت يد عائشة على يد النبي ﷺ وهو ساجد في بطن الليل وقدماه منصـوبتان يقول: **[اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وبك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك].**

قـال ﷺ : **[يـا معاذ إني أحبك فلا تدع أن تقول دبر كل صلاة اللهم أعنّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك].**

الشكر بالجوارح:

وهي ما سوى القلب واللسان من جوارح، فما من عمل يعمله ابن آدم من الطاعات والعبادات إلا وهو شاكر فيه لنعم ربه ﷻ.

والخلاصـة فـي الشـكر بالجوارح ؛ العمل الصالح، فعند بلوغ الأربعيـن ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ ﴾ (الأحقاف:١٥) ، فسـأل الله العمل الصالح عقب سؤاله التوفيق على شكر نعمته يعني أن الشكر باللسان وحده لا يكفي.

۞ المقصود أن المسلم عليه أن يشكر ربه بجوارحه بسائر أنواع الصدقات وكل معروف صدقة ولا يغني شكر يوم عن يوم آخر.

<u>**من الأشياء التي تؤدي إلى الشكر:**</u>

١- أنك تنظر إلى من هو دونك، قال ﷺ : [**انظروا إلى من هـو أسـفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فإنه أجدر ألا تزدروا نعمـة الله**]. فمما يحفظ العبد من ترك الشكر عندما ينظر إلى من هو فوقـه أن هذه قسمة الله ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ (الأنعام:١٦٥)

٢- أن يعلم العبد أنه مسئول عن النعمة ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾(التكاثر:٨) ومحاسب عليها حتى الماء البارد، ومن نوقش الحساب عُذب.

ويشـتط الناس في فهم شكر ما أسبغ الله عليهم من النعم لدرجة أنهم يحـرمون أنفسـهم منها، والله رضي لنا أن نستمتع وأن نشكر﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾(البـقرة:٦٠) ﴿ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾(البقرة:١٧٢).

فـلا يمكـن أن يكـون الشـكر بتحريم الحلال وهذا من مبادئ الصوفية، فالله رضي لنا أن نستخدم النعم المباحات ونشكره عليها ﷻ، ولـو كـان شرطاً في الانتفاع بالنعمة أداء ثمنها شكراً ؛ ما وفّت كل أعمال العباد ولا على نعمة واحدة [**أبـوء بنعمتك علي وأبوء بذنبي**] فتشكر الله وتعترف بالنعم وتستغفر من التقصير بشكر النعمة.

فـالحل أن نسـتخدم الـنعم فيما يرضي الله ونثني عليه ونشكره ونستغفره من التقصير في الشكر وهو تعالى رضي منا بهذا..

وقد جاء في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قام حتى تفطرت قدماه وتشققت قيل له أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: [**أفلا أكون عبداً شكوراً!!!**]. فتشكر الله على المغفرة.

ومن الوسائل أن ندعو الله أن يعيننا على الشكر[**اللهم أعني على ذكـرك وشكرك وحسن عبادتك**]، قالها لمعاذ، وسئل الرسول ﷺ : أي المـال نتخذ؟ فلفت نظرهم ﷺ فقال: [**ليتخذ أحدكم قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً وزوجة مؤمنة تعين أحدكم على أمر دينه ودنياه**].

قـال ﷺ: ((**إن الله ليرضـى على العبد أن يأكل الآكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها**)).

قال الحسن البصري رحمه الله : إن الله ليمتع بالنعمة ماشاء فإذا لـم يشـكر علـيها قلبها عذاباً ولهذا كانوا يسمون الشكر(الحافظ) لأنه يحفظ النعم الموجودة و(الجالب) لأنه يجلب النعم المفقودة.

هكـذا يحفظ ويحصّل من علو منزلة الشكر وعظمه عند الله، ولا ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد ← قيد النعم، فهو يقيد النعمة ألا تنقلب ولا تهرب.

قـال عمر بن عبد العزيز: [قيدوا نعم الله بشكر الله]، والشكر مع المعافـاة عـند بعـض أهل العلم أعظم من الصبر على الابتلاء. فقال مطرف بن عبد الله: [لأن أعافي فأشكر أحبُّ إليّ من أن أُبتلى فأصبر].

فـإذا رزقـت الشكر على النعمة فإن هذا لا يقل عن الصبر على

المصيبة. وقال الحسن: [أكثروا من ذكر هذه النعم فإن ذكرها شكر وقد أمـــر الله تعـــالى نبيه أن يحدث بنعمة ربه ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ (الضـحى:١١) والله يحــب من عبده أن يرى عليه أثر نعمته فإن ذلك شكرها بلسان الحال].

سادسا : الرضا :

ثمرات الرضا:

إن للرضا ثمراتٌ كثيرةٌ .. على رأسها :

١ــ الرضا والفرح والسرور بالرب تبارك وتعالى .. والنبي ﷺ كان أرضى الناس بالله وأسرّ الناس بربه وأفرحهم به تبارك وتعالى ..

فالرضــــا مـــن تمام العبودية ولا تتم العبودية بدون صبرٍ وتوكلٍ ورضا وذلٍ وخضوعٍ وافتقارٍ إلى الله ..

٢ــ إن الرضــــا يثمر رضا الرب عن عبده، فإن الله ﷻ رضي بمن يعبده عمّن يعبده على من يعبده وإذا ألححتَ عليه وطلبتَه وتذلّلتَ إليه أقبل عليك.

٣ــ الرضا يخلّص من الهمّ والغمّ والحزن وشتات القلب وكسف الـــبال وســـوء الحال، ولذلك فإن باب جنة الدنيا يفتَح بالرضا قبل جنة الآخـــرة ؛ فالرضا يوجب طمأنينة القلب وبَرْده وسكونه وقراره بعكس السخط الذي يؤدي إلى اضطراب القلب وريبته وانزعاجه وعدم قراره فالرضـــا ينزِل على قلب العبد سكينةً لا تتنزّل عليه بغيره ولا أنفع له

(٦)

مـــنها ؛ لأنـــه متى ما نزلت على قلب العبد السكينة : استقام وصلُحت أحواله وصلُح باله، ويكون في أمنٍ ودَعَةٍ وطيبِ عيشٍ ..

٤ـ الرضـــا يخلّـــص العـــبد مـــن مخاصمة الرب في الشرائع والأحكام والأقضية ..

مثلاً إبليس لما أُمر بالسجود عصى ؟ رفض ؟

لــم يرضَ .. كيف أسجد لبشرٍ خلقتَه من ترابٍ ؟ .. فعدم الرضا من إبليس أدّى إلى اعتراضٍ على أمر الله .. فإذاً منافقوا عصرنا الذين لا يرضـــون بحكـــم الله فـــي الربا والحجاب وتعدّد الزوجات في كل مقالاتهم في مخاصمةٍ مع الرب سبحانه .. لماذا ؟!!! ... كلامهم يدور علـــى مخاصـــمة الرب في شرعه وإن لم يصرّحوا بهذا .. ! فالرضا يخلّص الإنسان من هذه المخاصمة ..

٥ـ الرضا من العدل .. الرضا يُشْعِر العبد بعدل الرب ..ولذلك كـــان ﷺ يقول : ((عدلٌ فيَّ قضاؤك)) .. والذي لا يشعر بعدل الرب فهـــو جائـــرٌ ظالمٌ، فالله أعدل العادلين حتى في العقوبات .. فقطع يد الســـارق عقوبةٌ،فالله عدَل في قضائه وعقوباته فلا يُعْتَرض عليه لا في قضائه ولا في عقوباته ..

۞ الرضـــا مفيدٌ جداً أن المرء لا يأسف على ما فاته ولا يحزن ولا يتكدّر على ما أصابه ؛ لأنه مقدّرٌ مكتوبٌ ..

۞ صاحب الرضا واقفٌ مع اختيار الله ..يحسّ أن عنده كنزٌ إذا

ﷻ أكبر من الجنة .. لأن الله عندما ذكر نعيم الجنة قال : ((ورضوانٌ من الله أكبر)) ..

رضا الله إذا حصل هو أكبر من الجنة وما فيها ..

والرضا صفة الله والجنة مخلوقةٌ .. وصفة الله أكبر من مخلوقاته كلها ..

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾(التوبة:٧٢) ..

رضا الله أكبر من الجنة :

الرضا يخلّص العبد من سخط الناس .. لأن الله إذا رضي عن العبد أرضى عنه الناس .. والعبد إذا سعى في مرضاة الله لا يبالي بكلام الناس ..

أما المشكلة إذا سعى في مرضاة الناس فسيجد نفسه متعباً ؛ لأنه لن يستطيع إرضاءهم فيعيش في شقاء .. أما من يسعى لرضا الله فلا يحسب لكلام الناس أي حسابٍ ولن يتعبَ نفسياً .. ولو وصل إليه كلام الناس فلن يؤذيَه نفسياً ولن يبالي مادام الله راضياً عنه ..

سابعاً : الصبر :

فـإن الله جعـل الصبر جواداً لا يكبو، وصارماً لا ينبو، وجنداً لا يُهـزم، وحصناً حصيناً لا يُهدم، وهو مطيّة لا يضل راكبها فهو والنصر أخـوان شقيقان،فالنصر مع الصبر، وهو أنصر لصاحبه من الرجال بلا عـدّة ولا عـدد، ومحلـه من الظفر محل الرأس من الجسد، وهو سبيل الـنجاح والفـلاح، وهو فضيلة يحتاج إليه الإنسان في دينه ودنياه، فحال الإنسـان إمـا بين صبر على أمر يجب عليه امتثاله وتنفيذه، ونهي يجب علـيه اجتـنابه وتركه، وقدر يجري عليه اتفاقاً، ونعمة يجب عليه شكر المنعم عليها، وإذا كانت هذه الأحوال لا تفارقه فالصبر لازم إلى الممات، فالحـياة لا تستقيم إلا بالصبر، فهو دواء المشكلات لدار الابتلاء، والصبر زاد المجـاهد إذا أبطـأ عـنه الصبر، وزاد الداعية إذا أبطأ عنه الناس بالإجابـة، وزاد العالم في زمن غربة العلم، بل هو زاد الكبير والصغير، والرجل والمرأة، فبالصبر يعتصمون وإليه يلجئون وبه ينطلقون.

قـال الإمـام أحمد – رحمه الله – في كتاب الزهد عن عمر بن الخطاب ﷺ : ((وجدنا خير عيشنا بالصبر))،إن الله وصف الصابرين بأوصـاف وخصّـهم بخصائص لم تكن لغيرهم،وذكر الصبر في نحو تسـعين موضعاً من الكتاب الكريم، وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر وجعلها ثمرة له.

إن للصـابرين معـيّة مـع الله، ظفروا بها بخير الدنيا والآخرة، وفـازوا بها بنعمة الله الظاهرة والباطنة، وجعل الله سبحانه الإمامة في

الديـــن مـــنوطة بالصبر واليقين فقال تعالى: {وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمـــرنا لما صبروا وكانوا بآيتنا يوقنون}، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : ((بالصبر واليقين ؛ تُنال الإمامة في الدين)).

۞ أنواع الصبر الثلاثة إذاً:

١- صبر على طاعة الله.

٢- صبر عن معصية الله.

٣- صبر على أقدار الله المؤلمة.

هذا الصبر علّق القرآن الفلاح عليه فقال الله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾(آل عمران:٢٠٠) فعلّـــق الفـــلاح بمجمـــوع هذه الأمور، ونهى عن ما يضاد الصبر فقال: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾(الأحقـاف:٣٥) }، كمـــا قال: ﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ ﴾(آل عمران:١٣٩)، وكذلك فإنه ﷺ أخبر عن مضاعفة الأجر للصابرين : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ (القصـص:٥٤)، وإذا كانت الأعمال لها أجر معلوم محدود فإن الصبر أجره لا حد له، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾(الزمر:١٠) .

قال سليمان بن القاسم:كل عمل يعرف ثوابه إلا الصبر لأجل هذه الآيـــة ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ قـــال : كالمـــاء المنهمر، وعلق الله الإمامة في الدين على الصبر وعلى اليقين كما مرّ في الآية، وجعل الله الظفر بمعية الصبر فقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

(الأنفال:٤٦)، وجعل للصابرين أموراً ثلاثة لم يجعلها لغيرهم، وهي الصلاة منه والرحمة والهداية ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ۝ ﴾(البقرة:١٥٥-١٥٧) .

۞ وجعل الصبر ﷺ عوناً وعدة وأمر بالاستعانة به، فقال : {واستعينوا بالصبر والصلاة }، فمن لا صبر له؛ لا عون له، وعلّق النصر على الصبر والتقوى فقال تعالى: ﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ۝ ﴾(آل عمران:١٢٥)، وقال ﷺ: **(واعلم أن النصر مع الصبر)** وجعل سبحانه الصبر والتقوى جنة عظيمة من كيد العدو ومكره فقال ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾(آل عمران:١٢٠) ، وأخبر أن ملائكته تسلّم في الجنة على الصابرين فقال: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾(الرعد:٢٤) وجعل الله الصبر منزلة فوق منزلة المعاقب لمن عاقبه بمثل العقوبة فهو أفضل وأكثر أجراً فقال: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ۝ ﴾ (النحل:١٢٦) ، فتأمل هذا التأكيد (لئن) اللام ولامٌ أخرى للتأكيد (لهو).

ورتب المغفرة والأجر الكبير على الصبر مع العمل الصالح فقال: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝ ﴾(هود:١١) ، وجعل الصبر على المصائب من عزم الأمور وهذه مرتبة لا ينالها أي أحد فقال ﷻ :﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝ ﴾(الشورى:٤٣)، وأوصى لقمان الرجل الصالح

الحكيم ولده بأن يصبر على ما أصابه في سبيل الله : ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾(لقمان:١٧) .

ووعد الله المؤمنين بالنصر والظفر، وهي كلمته التي سبقت لهم نالوها بالصبر فقال تعالى: ﴿ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ﴾(الأعراف:١٣٧).

وعلّق تعالى محبته بالصبر، وجعلها لأهل الصبر فقال: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾(آل عمران:١٤٦)، وأخبر عن خصال من الخير لا يلقاها إلا الصابرون فقال تعالى في أهل العلم الذين علموا قومهم المفتونين بقارون : ﴿ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾(القصص:٨٠) وعند الدفع بالتي هي أحسن ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴾(فصلت:٣٥)، وأخبر أنه لا ينتفع بآياته ولا يستفيد منها إلا صاحب الصبر المكثر منه فأتى به بصيغة المبالغة في قوله تعالى ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴾ (إبراهيم:٥)، وفي سورة لقمان قال: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴾ (لقمان:٣١)، وبعد قصة سبأ قال: ﴿ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ

مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾(سبأ:١٩)، وفي ذكر النعمة بالسفن على العباد تنقل أنفسهم وبضائعهم قال: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ ﴾(الشورى:٣٣) ، فهذه أربع مواضع في القرآن الكريم تدل على أنه لا ينتفع بالآيات إلا أهل الصبر والشكر، الدين كله صبر وشكر، الإيمان نصفان صبر وشكر، حياة المسلم كلها صبر وشكر،ماذا يوجد في الطاعات والعبادات والتقرب إلى الله غير الصبر والشكر..؟!

وأثنى الله على عبده أيوب بأحسن الثناء لأنه صبر فقال: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾(ص:٤٤)، فمدحه بقوله نعم العبد لأنه صبر .

وحكم الله بالخسران حكماً عاماً على من لم يكن من أهل الصبر فقال: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾(العصر) .

وخص الله أهل الميمنة ﴿ أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ بأنهم أهل الصبر والمرحمة فقال تعالى: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ ﴾(البلد:١٧) .

وقرن الصبر بأركان الإسلام ومقامات الإيمان فقرنه بالصلاة فقال: ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾(البقرة:٤٥) .

وقرنه بالأعمال الصالحة فقال: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾(هود:١١) .

وقرنه بالتقوى فقال : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ ﴾(يوسف:٩٠) .

وقرنه بالتواصي بالحق فقال: ﴿ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴾

وقرنه بالرحمة فقال: ﴿ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ﴾ .

وقرنه باليقين فقال: ﴿ لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ .

وقرنه بالصدق فقال: ﴿ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ ﴾(الأحزاب:٣٥) }، فنعم المنزلة منزلة الصبر ونعم الخلق خلق الصبر ونعم أهله أهل الصبر، فالصبر طريق الجنة: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴿٢١٤﴾ ﴾(البقرة:٢١٤) .

هذا الصبر العناية به في القرآن الكريم كبيرة جداً دليلاً على أهميته، دليلاً على أنه خلق عظيم:

لا تيأسنّ وإن طالت مطالبة

إذا استعنت بصبر أن ترى الفرج

أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته

ومدمن القرع للأبواب أن يلج

وقل من جد في أمر يحاوله

واستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

والصبر لدخول الجنة وسبب النجاة من النار، فالجنة حفت بالمكاره، والنار حفت بالشهوات، فكيف تدخل الجنة بدون صبر على المكاره؟، وكيف تقي نفسك النار بدون صبر عن الشهوات؟ .

حفت الجنة بالمكاره :

علمنا أنه لا طريق للجنة إلا عبر المكاره، لأنه قال حُفّت، من جميع الجهات، فإذا ما ركبت المكاره لا تدخل الجنة، والمكاره هي ما تكرهه النفس من المجاهدة اللازمة لأداء العبادات (صلاة الفجر – الوضوء في البرد– الصبر على المصائب– الجهاد ....)،فلا يمكن دخول الجنة إلا باختراق المكاره، ولا يمكن اختراقها إلا بالصبر، وأما النار فإنها حفت بالشهوات، ولا يمكن منع النفس من الدخول في النار إلا إذا صبر عن المعاصي وامتنع عن المعصية وحبس نفسه عن ذلك فهذه إذاً فضائل هذا الخلق الكريم.

ما حكم الصبر؟

أصل الصبر واجب، الصبر من حيث الجملة واجب، والله أمر به ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾(البقرة:٤٥) ﴿ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ ﴾(آل عمران:٢٠٠) ونهى عن ضده ﴿ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾(الأحقاف:٣٥) ﴿ فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾(الأنفال:١٥) ﴿ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾(محمد:٣٣) ، ورتب عليه خيري الدنيا والآخرة، لكن عندما نأتي إلى التفصيل فالصبر منه ما هو صبر واجب، يأثم الإنسان إذا لم يصبر ومنه ما هو صبر مستحب فهو واجب في الواجبات وواجب عن المحرمات ومستحب عن المكروهات وإذا صبر عن المستحب ولم يفعله فصبره مكروه .

ومما يدل على أن الصبر قد يكون لازماً قول الله تعالى: ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴾(النحل:١٢٦) فهذا يدل على أن الصبر قد لا يكون لازماً كقوله : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾(النحل:١٢٦) فما حكم الصبر هنا ؟، أنت مخيّر بين أن تعاقب من عاقبك؟ ما الحكم الشرعي؟ يجوز لك القصاص فتنتقم منه بمثل ما ظلمك، ما حكم الصبر وعدم الانتقام؟ مستحب، فإذاً لو قلت ما حكم الصبر على صلاة الفجر؟ واجب، ما حكم الصبر عند المصيبة بمنع النفس عن النياحة؟ واجب، ما حكم الصبر عن الانتقام ممن أساء إليك بمثل ما أساء؟ مستحب..

فالصبر إذاً منه ما يكون واجباً ومنه ما يكون مستحباً والصبر جاء في صيغة المفاعلة في القرآن فقال { وصابروا }، وهذه عادة ما تكون إلا بين طرفين { وصابروا }، فمعنى ذلك أن هناك مغالبات بين المسلم والعدو، وأننا لابد أن نصابر أنفسنا على باطلهم وعلى جهادهم وعلى مقاتلتهم ومرابطتنا في الثغور وثباتنا عليها حتى لا ينفذوا إلينا من هذه الجهات فهذا صبر مهم جداً ..

مراتب الصبر :

والصبر مراتب فالصبر على طاعة الله أعلى منزلة من الصبر عن المعاصي والصبر عن المعاصي أعلى منزلة من الصبر على الأقدار. فالصبر على الواجبات أعلى أنواع الصبر لأن جنس فعل الواجبات أعلى درجة عند الله من جنس ترك المحرمات، وأجر ترك المحرمات أكبر من أجر الصبر على المصائب، لأن الصبر على الواجب والصبر على ترك

الحــرام عملية اختيارية، لكن لما نزلت به المصيبة، شيء بدون اختياره، ليس له إلا كف النفس والصبر.

عــن يوسف ﷺ : "كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز علــى شأنها الذي دعته إليه من الحرام أكمل من صبره على إلقاء أخوته لــه في الجبّ"، فصبره على الفاحشة أكمل وأعظم وأكثر أجراً من صبره علــى السجن وإلقاء أخوته له لأن الأول فيه شيء اختياري وصبره عليها صــبر رضـــا ومحاربة للنفس لا سيما مع وجود الأسباب القوية المزينة للحــرام فكـــان شاباً أعزباً وغريباً عند البلد وعبداً مملوكاً والمرأة جميلة وصـــاحبة منصب وهي التي دعته فسقطت الحواجز النفسية ثم استعانت علــيه بكــيد النســوة وهددتـــه بالسجن، ثم إن زوجها ليست عنده غيرة ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ﴾(يوســف:٢٩) ، وغُلِّقــــت الأبــواب وغــاب الرقيب، فصار داعي الزنا قوي جداً جداً ولكنه صبر علــيه الصلاة والسلام،أما الأمور الأخرى من السجن وإلقاء أخوته له في الجبّ فجرت عليه بغير اختياره ولا كسب له فيها.

مجالات الصبر :

١- الصبر على بلاء الدنيا ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾ (البلد:٤) مشــقة وعــناء وبلاء وفتن، والله تعالى قال: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾(البقرة:١٥٥) .

٢- الصــبر علــى مشتهيات النفس ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾(المنافقون:٩) ، ولذلك

قال بعض السلف: " ابتلينا بالضراء فصبرنا وابتلينا بالسراء فلم نصبر!" وقالوا: " البلاء يصبر عليه المؤمن والعافية لا يصبر عليها إلا صدّيق". والصبر على مشتهيات النفس لابدّ أن يكون من وجوه أربعة كما قال ابن القيم رحمه الله :

١- أن لا يركن إليها ولا يغترّ بها.

٢- أن لا ينهمك في نيلها ويبالغ في استقصائها.

٣- أن يصبر على أداء حق الله فيها.

٤- أن لا يصرفها في حرام.

٣- الصبر عن التطلع إلى ما بيد الآخرين، وعن الاغترار بما ينعمون به من مال وبنين، فبعض قوم قارون ما صبروا فقالوا: {ياليت لنا مثل ما أوتي قارون}، والله تعالى قال: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ (المؤمنون:٥٦) ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾(طه:١٣١) .

٤- الصبر على طاعة الله، وهذا أعظم أنواع الصبر وأشده على النفوس﴿ فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ﴾(مريم:٦٥) ، اصطبر أكمل وأبلغ من اصبر فالزيادة في المبنى تدل على الزيادة في المعنى ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾(طه:١٣٢) على الصلاة وعلى أمر الزوجة بالصلاة، والصبر على الطاعة له ثلاث أحوال:

أ- قبل الطاعة بتصحيح النية وطرد شوائب الرياء .

ب- حال الطاعة أن لا تغفل عن الله فيها ولا تتكاسل عن أدائها وتراعي واجباتها وأركانها والخشوع في الصلاة.

ج- بعد الفراغ منها بأن لا تفشي ما عملت وتُعجَب به وتُسَمّع به في المجالس ﴿ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾(البقرة:٢٦٤) }، ﴿ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴾(محمد:٣٣) .

٥- الصبر على مشاق الدعوة إلى الله ﷻ فإنه غير خاف على الدعاة حال الناس اليوم من البعد عن الدين والبعد هذا يستلزم دعوة كبيرة وإنكاراً للمنكرات وصدع بالحق، عمر بن عبد العزيز لما استشعر المسؤولية الكبيرة في تغيير الانحرافات المتراكمة من سنوات طويلة في العهود السابقة قال : "إني أعاجل أمراً لا يعين عليه إلا الله"! فنوح عليه السلام صبر هذا الصبر العظيم في الدعوة ٩٥٠ سنة، ألف سنة إلا خمسين عاماً على جميع أنواع الابتلاءات ﴿ دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝ ﴾(نوح:٥-٦) ، وهكذا سراً وجهاراً ماترك فرصة إلا قام بالدعوة، ثم الدعوة ليست عملية سهلة لأن الإنسان يجد كيد من الأعداء وحسد حتى من الناس الذين يظنهم معهم والقريبين منه على ما آتاه الله من فضله فيتمنون أن يوقع به ويضر ويتوقف ولذلك لابد للداعية أن يصبر في الداخل والخارج، القريبين والبعيدين، مع الناس الذين هم ضده علناً أو الذين يضمرون له الشر في داخل أنفسهم، ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ﴾

والحل ..﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾(آل عمران:١٨٦)
﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾(المزمل:١٠) .

الرسل كان من رأس مالهم وبضاعتهم الصبر على إيذاء أقوامهم بل أكدوا على ذلك وقالت الرسل لأقوامهم: ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾(إبراهيم:١٢)، ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ﴾(الأنعام:٣٤) وهكذا يصبر الداعية على طول الطريق وعقباته وبطء النصر وتأخره، ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾(البقرة:٢١٤) ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾(يوسف:١١٠) .

٦- إن هناك صبراً حين البأس وفي الحرب وعند لقاء العدو والتحام الصفين فيكون الصبر شرط للنصر والفرار كبيرة ولذلك أوجب الله الثبات ﴿ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ ﴾(الأنفال:٤٥) وحذر من الفرار وتولي الأدبار وعندما تضطرب المعركة وينفرط العقد فيكون الصبر أشد ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾(آل عمران:١٤٢) ، ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ﴾(آل عمران:١٤٤) .

وحدثنا الله عن الثلة المؤمنة البقية الباقية بعد عمليات الترشيح

المستمرة في قصة طالوت ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ ﴾ وعصوه من قبل ومن بعد وما بقي معه إلا قليل، ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ﴾ حتى الذين جاوزا النهر كان بعضهم استسلاميين فقالوا: ﴿ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ﴾، ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾(البقرة:٢٤٩)، لذلك كان المسلمون صُبُر عند اللقاء، يصبرون وكانوا يتناقلون بينهم عبارة " إنما النصر صبرُ ساعة"، والمراغمة والمدافعة الآن بين فريقين، الذي يصبر أكثر هو الذي ينتصر، فأوصى الله عباده بالصبر على ما يلاقونه من ضرر الناس وأن لا يقابلوا السيئة بمثلها ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾(فصلت:٣٤)، فالصبر يكون أحياناً للمعلم على أذى التلميذ، للداعية على أذى المدعوّ، للمربي على أذى المتربي وهكذا..

ولذلك يقول الخضر لموسى:﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾، فتعهّد وقال: ﴿ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا ﴾(الكهف:٦٧-٦٩) تعهد ولكنه لم يستطع أن يصبر في تلك المواقف، فإذاً الصبر له مواقف ومواطن وحالات ومجالات ينبغي علينا أن نكون من الصابرين لله فيها...

ثامناً : المحاسبة :

المحاسبة قضية مهمة للغاية، تدور عليها السعادة ولا يحصل الصلاح إلا بها.. محاسبة النفس أمر عظيم جداً، المحاسبة لا تصلح النفس إلا بها، المحاسبة من قام بها اليوم أمِن غداً،المحاسبة أن تنظر في نفسك وتتأمل فيها

وتعــرف عيوبها، المحاسبة لا نجاة إلا بها ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾(المجادلة:٦) .

محاســبة الــنفس طــريقة المؤمنيــن وسمة الموحدين وعنوان الخاشــعين، فالمؤمــن متق لربه محاسب لنفسه مستغفر لذنبه، يعلم أن الــنفس خطرها عظيم، وداؤها وخيم، ومكرها كبير وشرها مستطير، فهي أمارة بالسوء ميالة إلى الهوى،داعية إلى الجهل، قائدة إلى الهلاك توّاقــة إلــى اللهــو إلا من رحم الله، فلا تُترك لهواها لأنها داعية إلى الطغيان، من أطاعها قادته إلى القبائح، ودعته إلى الرذائل وخاضت به المكــاره، تطلعاتها غريبة،وغوائلها عجيبة،ونزعاتها مخيفة، وشرورها كثيرة، فمن ترك سلطان النفس حتى طغى فإن له يوم القيامة مأوىً من جحــــيم ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾، وعلـــى النقــيض ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ (النازعات:٣٧ـ٤١).

۞ قــال الحســن: [إن العبد لايزال بخير ما كان له واعظ من نفسه وكانت المحاسبة من همته].

ويوجــد واعظ في قلب كل مسلم إذا أراد أن يدخل في باب حرام قــال: ويلــك لا تفتحه، إنك إن تفتحه تلجه!، لا تزح الستار عن باب الحرام، إنك لو نظرت انجذبت، ويلك لا تفتحه، إنك إن تفتحه تلجه!..

قــال ميمون بن مهران: [النفس كالشّريك الخوّان إن لم تحاسبه؛ ذهب بمالك!].

المحاســبة وقت الرخاء سهلة بالنسبة للمحاسبة في وقت الشدة، فرحم الله عــبداً قــال لنفسه ألستِ صاحبة كذا وكذا؟! هذا نوع من الحساب على المعاصي، وحساب على النوايا كقولك ماذا أردتِ بالعمل والأكلة والشربة..

فوائد المحاسبة ومصالحها :

أن المرء يطّلع على عيوب نفسه ويكتشف أشياء تدهشك ولا يفقه الــرجل حــتى يمقت نفسه ويحتقرها في جنب الله، وكان بعض السلف يقول في دعائه في عرفة (اللهم لا ترد الناس لأجلي)! .

وكان محمد بن واسع يقول: (لو كان للذنوب ريح ما قدر أحد أن يجلس إليّ)!، مع أنه من كبار العباد في هذه الأمة .

وقــال يونس بن عُبيد: (إني لأجد مائة خصلة من خصال الخير ما أعلم أن في نفسي منها واحدة)!

وهذا حمّاد بن سلمة دخل على سفيان الثوري وهو يحتضر فقال: (يــا أبا عبد الله أليس قد أمنت مما كنت تخافه وتقدم على من ترجوه وهــو أرحم الراحمين؟!) قال: (يا أبا سلمة أتطمع لمثلي أن ينجو من النار) قال: (إي والله إني لأرجو لك ذلك).

تاسعاً : التفكر :

إن الــتفكر مــن أعمــال القلوب العظيمة وهو مفتاح الأنوار ومبدأ الإبصــار وشبكة العلوم والفهوم وأكثر الناس قد عرفوا فضله ولكن جهلوا حقيقــته وثمرته وقليل منهم الذي يتفكر ويتدبر وقد أمر الله تعالى في التفكر

والتدبر في كتابه العزيز في مواضع لا تحصى وأثنى على المتفكرين فقال:﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا ﴾(آل عمران:١٩١) .

۞ وقال عطاء انطلقت يوماً أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة ﵂ فكلمتنا وبيننا وبينها حجاب فقالت : يا عبيد ما يمنعك من زيارتنا؟ قال: قول رسول الله ﷺ : { **زر غباً ؛ تزدد حباً** }، قال ابن عمير: فأخبرينا بأعجب شيء رأيتيه من رسول الله ﷺ ، قال فبكت، وقالت: كل أمره كان عجباً، أتاني في ليلتي ثم قال: ذريني أتعبد لربي ﷻ فقام إلى القربة فتوضأ منها ثم قام يصلي فبكى حتى بل لحيته ثم سجد حتى بل الأرض ثم اضطجع على جنبه حتى أتاه بلال يؤذنه بصلاة الصبح، فقال: يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر.. فقال: لقد أنزلت عليّ الليلة آيات ويلٌ لمن قرأها ولم يتدبر فيها أو كما قال ﷺ ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾(آل عمران:١٩٠) ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها. [الحديث صححه الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة] .

۞ وعن محمد بن واسع أن رجلاً من أهل البصرة ركب إلى أم ذر بعد موت أبي ذر فسألها عن عبادة أبي ذر فقالت : "كان نهاره أجمع في ناحية البيت يتفكر".

قال الحسن:" تفكر ساعة خير من قيام ليلة".

قال الفضيل:" الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك".

قيل لإبراهيم إنك تطيل الفكر فقال:" الفكرة مخ العقل".

وكـــان ســـفيان بن عيينة كثيراً ما يتمثل بقول القائل: "إذا المرء كانت له فكرة؛ ففي كل شيء له عبرة" .

وقـــال الحســـن: "من لم يكن كلامه حكمة فهو لهو، ومن لم يكن سكوته تفكراً فهو سهو، ومن لم يكن نظره اعتباراً فهو لهو".

وفي قوله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾(الأعراف:١٤٦) قال : أمنع قلوبهم التفكر في أمري .

وكان عدد من أهل العلم والحكمة يطيلون الجلوس والتفكر.

وقـــال عـــبد الله بـــن المبارك يوماً لسهل بن عدي لما رآه ساكتاً متفكراً: أين بلغت؟ قال: الصراط!

وقال بشر :" لو تفكر الناس في عظمة الله ما عصوا الله ﷻ".

وقـــال ابن عباس: "ركعتان مقتصدتان في تفكر خيرٌ من قيام ليلة بلا قلب".

وبيـــنما كان أبو شريح يمشي إذ جلس فتقنع بكسائه فجعل يبكي فقيل له ما يبكيك؟ قال:" تفكرت في ذهاب عمري وقلة عملي واقتراب أجلي".

وقال أبو سليمان: "عودوا أعينكم البكاء وقلوبكم التفكر".

وقـــال:" الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لأهل الولاية، والفكر في الآخرة يورث الحكمة ويحي القلوب. ومن الذكر يزيد الحب ومن التفكر يزيد الخوف".

وقال ابن عباس: "التفكر في الخير يدعو إلى العمل به والندم على الشر يدعو إلى تركه. وإذا كان هم العبد وهواه في الله ﷻ جعل الله صمته تفكراً وكلامه حمداً" .

وقال الحسن:"إن أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر، وبالفكر على الذكر حتى استنطقوا قلوبهم فنطقت بالحكمة".

وكان داود الطائي رحمه الله على سطح في ليلة قمراء فتفكر في ملكوت السموات والأرض وهو ينظر إلى السماء ويبكي حتى وقع في دار جار له، فوثب صاحب الدار من فراشه وبيده سيف ظن أنه لصّ، فلما نظر إلى داود رجع ووضع السيف وقال من ذا الذي طرحك من السطح، قال: ما شعرت بذلك.

وأشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة في التأمل في أسماء الله وصفاته، وجنته وناره، ونعيمه وعذابه، وأخرته وآلائه وآياته المسطورة في كتابه والمنثورة في كونه وما خلق ﷻ ، وما ألذ هذه المجالس وما أحلاها وما أطيبها لمن رزقها .

وقال الشافعي رحمه الله: استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكر. وكان الشافعي رحمه الله : من أقوى الناس عقلاً وأجودهم استنباطاً، ومن القلائل الذين مروا في الأمة الإسلامية بهذه المنزلة، وقال أيضاً: صحة النظر في الأمور نجاة من الغرور والعزم على الرأي سلامة من التفريط والندم والفكر يكشفان عن الحزم والفطنة ومشاورة الحكماء ثبات في النفس وقوة في البصيرة، ففكر قبل أن تعزم وتدبر قبل أن تهجم وشاور قبل أن تقدم.

وقال أيضاً : الفضائل أربع، إحداها الحكمة وقوامها الفكرة والثانية العفة وقوامها التغلب على الشهوة والثالث القوة وقوامها التغلب على الغضب، والرابعة العدل وقوامه في اعتدال قوى النفس.

ﷻ تفكر في ما يحدث في خلق الجنين في الرحم في ظلمات ثلاث..ولو كشف الغطاء والغشاء وامتد البصر لرأيت التخطيط والتصوير يظهر عليها شيئاً فشيئاً ولا ترى المصوّر ولا آلته فهل رأيت مصوراً أو فاعلاً لا ترى آلته ومع ذلك يتشكل خلقه ﷻ..

ثم من تمام رحمته أنه لما ضاق الرحم عن الصبي لما كبر كيف هداه السبيل حتى تنكّس وانقلب وتهيأ للخروج وتحرك وخرج من ذلك المضيق وطلب المنفذ كأنه عاقل بصير بما يحتاج إليه، ثم لما خرج واحتاج إلى الغذاء كيف هداه إلى التقام الثدي، ثم لما كان بدنه سخيفاً لا يحتمل الأغذية الكثيفة كيف دبر له في اللبن اللطيف المستخرج بين الفرث والدم شيئاً سائغا خالصاً، وكيف خلق الثديين وجعل فيهما اللبن وأنبت منهما حلمتين على قدر ما ينطبق عليهما فم الصبي .. قدر الحلمة على قدر فتحة الفم في الصبي ثم فتح في حلمة الثدي ثقباً ضيقاً جداً حتى لا يخرج اللبن منه إلا بعد المص تدريجاً فإن الطفل لا يطيق منه إلا القليل ثم كيف هداه إلى الامتصاص حتى يستخرج من ذلك المضيق اللبن الكثير عند شدة الجوع، ثم انظر إلى عطفه ورحمته ورأفته كيف أخّر خلق الأسنان إلى تمام الحولين، لأنه في الحولين لا يتغذي إلا باللبن فيستغني عن السن وإذا كبر لم يوافقه اللبن السخيف، ويحتاج إلى طعام غليظ ويحتاج الطعام إلى المضغ والطحن فأنبت له الأسنان في وقت الحاجة..

فسبحانه كيف أخرج تلك العظام الصلبة في تلك اللثاة اللينة ثم حنن قلوب الوالدين عليها للقيام بتدبيره في الوقت الذي كان عاجزاً عن تدبير نفسه..، فلو لم يسلط الله الرحمة على قلوبهما لكان الطفل أعجز الخلق عن تدبير نفسه، ثم انظر كيف رزقه القدرة والتمييز والعقل والهداية تدريجاً..حتى يتكامل فيصير مراهقاً ثم شاباً ثم شيخاً إما شاكراً أو كفوراً ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝ ﴾(الإنسان:١-٣)، فتأمل وتفكر في عظمة الرب ﷻ وهذا في شيء واحد من مخلوقاته وهو الإنسان وفي الإنسان أشياء كثيرة أخرى وكثير منها غير معلوم للآن فما بالك فيما جعل في الأرض في أكنافها وأنهارها وجبالها وهيأ السكن للساكن وجعل الأرض فراشاً وكيف جعلها كفاتاً وأنه أرساها بالجبال الرواسي وأودع فيها المياه وفجر العيون وأسال الأنهار وجعل خزانات جوفية ﴿ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾(الحجر:٢٢)، وهكذا ترى في البوادي والأزهار والثمار والمعادن والجواهر وانقسامها إلى خسيس وثمين وهكذا جعل منها ما يصنعه الإنسان من حاجته وحتى الحلي والنفط والكبريت والقار وحتى الملح الذي يحتاجه لتطييب طعامه وما في هذه الحيوانات من الأمور العظيمة والتناسب الدقيق الهندسي فترى العنكبوت يبني بيته على طرف نهر فيطلب أولاً موضعين متقاربين بينهما فرجة بمقدار ذراع فما دونها حتى يمكنه أن يصل بالخيط بين طرفيه ثم يبتدئ ويلقي اللعاب الذي هو خيطه على جانب ليلتصق به ثم يغدو إلى الجانب الآخر فيحكم الطرف الآخر من الخيط ثم كذلك يتردد ثانياً وثالثاً ويجعل بعد ما بينهما

متناسباً تناسباً هندسياً حتى إذا أحكم معاقد القمط ورتب الخيوط كالسدى اشتغل باللُحمة (الكسوة)، فيضع اللحمة على السدى ويضيف بعضه إلى بعض ويحكم العقد على مواضع التقاء اللحمة بالسدى ويراعي في جمع ذلــك تناسب الهندسة ويجعل ذلك شبكة يقع فيها البقّ والذباب ويقعد في زاويـــة مترصداً لوقوع الصيد في الشبكة فإذا وقع الصيد بادر إلى أخذه وأكلـــه فإن عجز عن الصيد كذلك طلب لنفسه زاوية من حائط ووصل بيـــن طرفي الزاوية بخيط ثم علق نفسه فيها بخيط آخر وبقي منكساً في الهـــوا ء ينـــتظر ذبابة تطير، فإذا طارت رمى بنفسه إليها فأخذه ولفّ خـــيطه على رجليه وأحكمه ثم أكله وما من حيوان صغير ولا كبير إلا وفـــيه مـــن العجائـــب ما لا يحصى..، أفترى أنه تعلم هذه الصنعة من نفسه؟أو تكون من نفسه؟ أو علمه آدمي؟

فـــإذاً البصـــير يرى في هذا الحيوان الصغير من عظمة الخالق المدبـــر وجلالـــه وكمال قدرته وحكمته ما تتحير فيه الألباب والعقول فضـــلاً عـــن سائر الحيوانات، وإذا رأيت حيواناً غريباً ولو دوداً تجدد التعجب .. وقال سبحان الله..!

۞ وهكـــذا مـــا خلقـــه الله في البحار وما يكون في قيعانها وفي السحاب وما يجتمع فيها من المطر وكيف ينزل وفي ملكوت السموات والأرض..، والـــتفكر فـــي مخلوقـــات الله قد أمر الله به وأنه ﷻ مدح عـــباده ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾(آل عمران:١٩١) وأمر فـــي التفكر وحث عليه..في النفس ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ﴾(الروم:٨) يـــتفكرون في خلق السموات والأرض لماذا..؟ قال الشيخ عبد الرحمن

السـعدي رحمه الله : " ليستدلوا بها على المقصود منها ودل هذا على أن الـتفكر عبادة من صفات أولياء الله العارفين فإذا تفكروا عرفوا أن الله لم يخلقها عبثاً فيقولون ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ ﴾(آل عمران:١٩١) يعني نزهناك عن كل ما لا يليق بك"، بعض الناس تفكره فقط إلـى حد إتقان الصنعة وأنها صنعة جميلة لكن المقصود الأعظم ليس فقط التعجب من دقة الصنع بل لشيء وراء ذلك..

عاشراً: المحبة:

والآن مـع عمـل كبير من أعمال القلوب فهو أساسها جميعاً ألا وهـو محـبة الله تعـالى. المحـبة هي الرأس والخوف والرجاء هما الجناحان والعبد يسير إلى الله بالمحبة والخوف والرجاء.

هـذه المحـبة هـي المنزلة التي فيها تنافس المتنافسون وإليها شـخص العـاملون وإلى علمها شمر السابقون وعليها تفانى المحبون وبروح نسيمها تروح العابدون فهي قوت القلوب وغذاء الأرواح وقرة العـيون وسـرور النفوس ونور العقول وعمارة الباطن وغاية الأماني ونهاية الآمال وروح الحياة وحياة الأرواح.

وهي الحياة التي من حرمها فهو من جملة الأموات، والنور الذي مـن فقـده فهو في بحار الظلمات، والشفاء الذي من عدمه حلت بقلبه جميع الأسقام واللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام، فهي روح الإيمـان والأعمـال والمقامات والأحوال التي متى ما خلت منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه.

تحمل أثقال السائرين إلى بلاد لم يكونوا إلا بشق الأنفس بالغيها، وتوصلهم إلى منازل لم يكونوا بدونها أبداً واصليها، وتبوءهم من مقاعد الصدق مقامات لم يكونوا لولاها داخليها، وهي مطايا القوم التي مسراهم على ظهورها دائماً إلى الحبيب، وطريقهم الأقوم الذي يبلغهم إلى منازلهم الأولى من قريب.

١- تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة إذ لهم من معية محبوبهم أوفر نصيب وقد قضى الله يوم قدر مقادير الخلائق بحكمته البالغة أن المرء مع من أحب..، فيالها من نعمة على المحبين سابغة.

٢- تالله لقد سبق القوم السعاة وهم على ظهور الفرش نائمون وقد تقدموا الركب بمراحل وهم في سيرهم واقفون.

ما هي الأسباب الجالبة لمحبة الله تعالى؟

١- قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به. **قال تعالى:** ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾(محمد:٢٤) ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾(ص:٢٩) ، فهذا هو المقصود الأعظم والمطلوب الأهم من إنزال القرآن، وأن يشغل قلبه بالتفكير في معنى ما يقرأ ويتجاوب مع كل آية بمشاعره وعواطفه دعاءً واستغفاراً ورجاءً . قال حذيفة صليت مع الرسول ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة فقلت يركع عند المائة ثم مضى، فقلت يصلي بها في ركعة فمضى فقلت يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلاً إذا مر بآية فيها تسبيح سبّح، وإذا مر

بســؤال سأل، وإذا مرّ بتعوّذ تعوّذ. وكان ﷺ إذا قرأ ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْـأَعْلَى ﴾(الأعلى:١) قال سبحان ربي الأعلى. فلاشيء أنفع للقلب وأجلب لمحـبة الله مــن قراءة القرآن بالتدبر والتفكر فإنه جامع لجميع منازل الســائرين وأحوال العاملين وهو الذي يورث المحبة والشوق والخوف والــرجاء والإنابــة والتوكل والرضا والشكر والصبر وسائر الأحوال وأعمال القلوب . ثم يزجر عن الصفات المذمومة والأفعال القبيحة التي تفسد القلب وتهلكهه .

قــال الحســن البصري: (أنزل القرآن ليعمل به فاتخذوا تلاوته عملاً) فالتفكر بالقرآن أصل صلاح القلب والعمل به متمم لذلك ولا بد لهذا من هذا.

٢- الــتقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض لأنها توصل إلى درجــة المحــبة كما جاء في الحديث القدسي: { من عادى لي ولياً فقد آذنــته بالحــرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت ســمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه ولأن استعاذنى لأعيذنّه }

أسباب محبة الله :

فتضــمن هذا الحديث الإلهى الشريف **حصر أسباب محبة الله في أمرين : أداء فرائضه، والتقرب إليه بالنوافل.**

وأخبر سبحانه أن أداء الفرائض أحب ما يتقرب إليه المتقربون ثم

بعدهـــا النوافل، وأن المحب يستكثر من النوافل، لا يزال يكثر منها حتى يصير محبوباً لله فإذا صار محبوباً شغلته المحبة عن أي أفكار وخواطر أخـــرى أجنبـــية غريـــبة عـــن العبادة فلا تخطر على باله وإذا جاءت تتصـــرف وتتطرد بسرعة، لأنه صار عنده من مراقبة الله ما يمنع هذه الأفكـــار من الورود ويكون عنده من المهابة والعظمة لربه ما يمنع من الانشـــغال بـــأي شـــيء أجنبي عن العبادة، ويكون عنده من الإجلال لله والأنس به والشوق إليه ما يجعله دائماً ذاكراً تالياً عابداً عاملاً .

فإذا قيل أن هناك أناس وهذا أكثر حال المسلمين، يستكثرون من الـــنوافل وهـــم مقصرون في الواجبات ويقترفون المعاصي فما الحل؟ لـــيس الحـــل في ترك النوافل فبتركها يزداد حاله سوءاً فالنوافل تجبر الـــنقص، بـــل الحل في البقاء على النوافل لكن يصلح حال الواجبات ويصلح حال ترك المحرمات فيمتنع عن المحرمات ويزيد في النوافل. وفي الحديث كما قال ابن حجر عظم قدر الصلاة فإنه ينشأ عنها محبة الله للعبد الذي يتقرب بها وذلك لأنها محل المناجاة والقربى، ولا واسط فـــيها بيـــن العبد وربه، ولا شيء أقر لعين العبد منها ومن كانت قرة عينه في شيء فإنه يود أنه لا يفارقه ولا يخرج منه لأن فيه نعيمه وبه تطيـــب حياته وهذا للعابد. إذاً المحافظة على الصلاة فرضاً ونفلاً من أعظـــم ما يجلب المحبة ومنها قيام الليل. ولا تكاد تجد فريضة إلا وله نوافـــل (الصـــلاة- الصـــيام – الـــزكاة- الحج- صلة الرحم والبر بالوالديـــن)حتى المرء إذا قصّر في الواجب وجد ما يعوّض به، لكن لا يمكن للمرء أن يشتغل بالنوافل ويترك الواجبات وهذا من خلل التصور واضطراب الميزان وخلل المنهج.

٣- أن يكثر ذكر الله باللسان والقلب والعمل فنصيبه من المحبة علـى حسـب نصيبه من هذا الذكر، ولهذا أمر تعالى بالإكثار من ذكره، وأنـه سـبب للفلاح ﴿ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾(الجمعة: ١٠) وأثنى على أهل الذكر ومدحهم وأخبر نبيه ﷺ أنه فوق منزلة الجهاد، وجعل الله هذا الذكر حتى بعد العبادات العظيمة وخاتمة الأعمال الصالحة .

وبعـد الصـيام ﴿ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾(البقرة:١٨٥).

والحج ﴿ فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ﴾(البقرة:٢٠٠) .

والصلاة ﴿ فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡ ﴾(النساء:١٠٣) .

والجمعة إذا انقضت ﴿ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾(الجمعة:١٠) وهكذا..

فالذكر هذا مقارن للأعمال الصالحة{ وأقم الصلاة لذكري}، وبناء على ذلك فإن ذكر الله تعالى من أعظم ما يوصل إلى محبته ﷻ ..

٤- أن تؤثـر محابـه على محابّك عند غلبات الهوى، وأن تتسنم إلى محابّه ولو صعُب المرتقى، **وعلامة هذا الإيثار شيئان:**

أ- فعل ما يحبه الله ولو كانت نفسك تكرهه.

ب- ترك ما يكرهه الله ولو كانت نفسك تحبه.

وبهذيـــن الأمريـــن يصح مقام الإيثار، ومؤونة هذا الإيثار شديدة لقوة داعي الهوى والطبع والعادة ولكن المؤمن الذي يريد أن يصل إلى مرتـــبة المحبة وأن يجلب محبة الله له يتكلف المؤونة الشديدة ويراغم نفســـه الضـــعيفة لكـــي يصل إلى هذا ويحقق هذا الإيثار، فيشمر وإن عظمـــت المحنة ويتحمل الخطر الجسيم إرضاء للملك ولأجل الحصول على الفوز الكبير، فإن ثمرة هذا في العاجل والآجل ليست تشبهه ثمرة من الثمرات ولا تتحقق المحبة إلا بهذا الإيثار.

قـــال أحدهم: ((ما ابتلى الله سبحانه عبده المؤمن بمحبة الشهوات والمعاصـــي وميل نفسه إليها إلا ليسوقه بها إلى محبة ما هو أفضل منه وأنفـــع وأخير وأدوم وليجاهد نفسه على تركها لله فتورثه هذه المجاهدة محـــبة الله والوصول إلى المحبوب الأعلى، فكلما نازعته نفسه إلى تلك الشهوات واشتدت إرادته لها وشوقه إليها ؛ صرف ذلك الشوق والإرادة بشوق أعظم ومحبة أكبر وهي محبة الله ﷻ)).

أعظم منـزلة للمرأة في الجنـة :

والقــاعدة أن الإنسان لا يمكن أن يترك محبوباً إلا لمحبوب أعلى منه .

فكان لأجل ذلك من مشى إلى محبوبه على الجمر والشوك؛ أعظم مــن مشى إليه راكباً على النجائب. فليس من آثر محبوبه مع منازعة نفسه كمن آثره مع عدم منازعتها، لماذا كان صالحو البشر أفضل من الملائكــة؟، لأن الملائكة ليس لديهم شهوات ومنازاعات، منقادون إلى الله بطبيعــتهم، يسبحون الليل والنهار لا يفترون، ما من موضع أربعة أصـــابع فـــي السماء إلا وفيه ملك قائم أو راكع أو ساجد ولذلك أطّت الســماء من ثقل الملائكة الذين يعبدون الله فيها، لكن الذي يسبح ويعبد دون أن يفتر مع منازعة نفسه والشهوات وهذه العوائق والعلائق ومع ذلك صامد صابر ؛ هذا أعلى . ولماذا كانت المرأة من البشر في الجنة أفضـــل من الحور العين؟ بمجاهدتها نفسها ومراغمتها نفسها والتغلب على الشهوات وصبرها وصلاتها وصومها وعبادتها.فهو سبحانه يبتلي عبده بالشهوات إما حجاباً له عنه أو حجاباً له يوصله إلى رضاه.

الفهـــرس